

منازلُ للحُبّ

قصتان

عصام عبد الحميد

دار البشير
للثقافة والعلوم



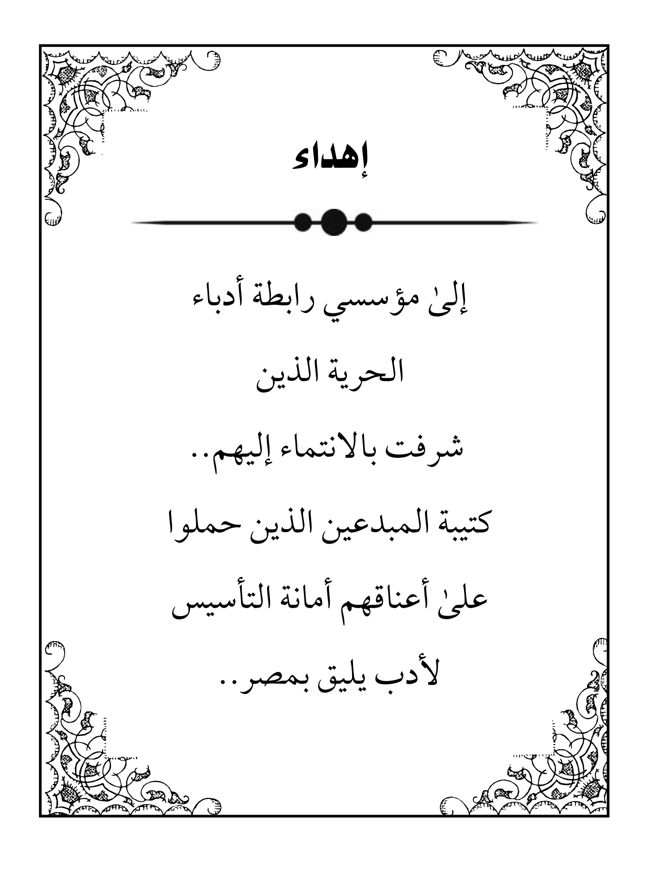
اسـم الكتـاب: منازل الحب
التـأليـف: عصام عبد الحميد
موضوع الكتـاب: قصص
عـدد الصفحات : 136
عـدد المـلازم : 8.5
مقاس الكتـاب : 14 × 20
عـدد الطبعـات : الطبعة الأولي
الإيداع القانوني :
الترقيم الدولي :
الصف التصويري: الندي للتجهيزات الفنية

التوزيع والنشر
دار البشير للثقافة والعلوم
مصر

darelbasheer@hotmail.com
darelbasheeralla@gmail.com
ت : 01012355714 - 01152806533

1436 هـ
2015 م





إهداء

إلىٰ مؤسسي رابطة أدباء

الحرية الذين

شرفت بالانتماء إليهم..

كتيبة المبدعين الذين حملوا

علىٰ أعناقهم أمانة التأسيس

لأدب يليق بمصر..

وحدة.. خوف.. بكاء

نام في حضني مطمئنا مستمتعا بالدفء والأمان حين استيقظ علىٰ نهنهة أنفاسي الباكية.. إندهش.. إقترب مني.. سألني وهو يمسح بيده الصغيرة دموعي:

-مايبكيك؟

قلت وأنا أداريها بابتسامة:

-طلبت منك ألا تنم قبلي فتركتني ونمت

فتبسم قائلا:

-ولماذا تريدني أن أسهر معك حتىٰ تنام؟

-لأنني أخاف أن أبقىٰ وحيدًا

ضمني بحنان ذراعيه الصغيرتين:

-لاتخف.. سأسهر معك حتىٰ تنام

-وستحكىٰ لىٰ قصة؟

-نعم.. سأحكي لك

ثم ما لبث أن غلبه النعاس.. فعدت للوحدة والخوف والبكاء.



مَنَازِلُ للحُبّ

كون أمِّي من أصل تركيٍّ لا يعني أبدًا أنَّني من الأغنياء الذين يمتلكون الضِيَاع والأموال كما يشاع عن أحفاد الأتراك، صحيحٌ كان يمكن أن يحدث ذلك لولا أنَّ جدَّتي لأمي أوقفت كلَّ ما تملكه لله، ولم تدرك أنَّ الحياة ستكون قاسية علىٰ أحفادها فتركتهم فقراء يواجهون بكدٍّ وعرقٍ لا يوازي ما يحصلون عليه من فتات المال.

كل ما ورثته عن العرق التركيِّ الذي يسري في دمي هو وسامة بادية من اختلاط الجنس التركيِّ بالمصريِّ، وجه مستطيلٌ أبيضٌ مشرَّبٌ بحمرةٍ جميلةٍ مع بعض النَّمش المتناثر علىٰ خدودي وأنفي بنفس لون شعري الكستنائي الناعم المتناغم وعيونٍ واسعةٍ بنِّية اللَّون ساحرة ساهمة، قوامٌ رياضيٌ ممشوقٌ، يحسب من يرىٰ جسدي أنَّني أكبر من سنِّي بعشر سنواتٍ، هذا كلُّ ما ورثته من العرق التركيِّ.. أعمل في مهنة النِّجارة التي تعلَّمتها من أبي في ورشتنا المطلَّة علىٰ نيل دمياط أكسبت ذراعيَّ فتوةً وعروقًا نافرةً وخشونةً في يديَّ طالما أعجبت الفتيات اللاتي كنت أسرق منهنَّ

بعض لمساتٍ وقبلاتٍ في عنفوان مراهقتي ليس إلا في بداية تفتح جسدي علىٰ الدنيا.

لم أكن أعرف في الحياة سوىٰ ورشة النِّجارة في الصَّباح والسِّباحة في النِّيل بعد العصر أيام الرَّبيع والذهاب للسينما في المساء، أمَّا في الصَّيف فكانت رأس البرِّ، وما أدراك ما رأس البرِّ في الأربعينيات، كانت مهوىٰ أفئدة قلوب العاشقين، حيث كنت أتعرَّف علىٰ فتياتٍ كثيراتٍ قادماتٍ مع أهاليهن من المنصورة وطنطا والمحلة، بالإضافة طبعًا للقليل من بنات دمياط حتىٰ أتجنَّب مشكلات مدينتنا الصغيرة، كان لي في كل شاطئ فتاةٌ مختلفةٌ عن الأخرىٰ، لم يكنَّ كلهنَّ جميلات فنادرًا ما تجد فتاةً قادمةً من هذه النَّواحي جميلةً، غير أن تهافت البنات وإقبالهنَّ عليَّ بلهفةٍ وغوايةٍ ونظراتٍ ساحرةٍ تحمل نداءً أنثويًا صارخًا منحني طاقةً جميلةً من الرومانسية وسعادةً في اتِّساع البحر والهواء والسَّماء فكنت أعيش مع كلِّ فتاةٍ بوجداني ومشاعري كأنَّه ليس في الوجود سواها، ثم تذهب صورتها بمجرَّد أن ألتقي بغيرها في شاطئ آخر لأعيش نفس الحالة الوجدانية الرائعة.

في أحد الأيام أخذني أبي إلىٰ المنطقة الأولىٰ، وهي أقصىٰ شمال رأس البر، تبدأ من السُّوق القديم وحتىٰ اللسان الذي يلتقي عنده النِّيل بالبحر في نهاية رحلته الطويلة، منطقةٌ راقية

يسكنها عِلْية القوم، ذهبنا لإصلاح بعض الموبيليا في إحدىٰ الفيلات وهناك طار عقلي، كل النِّساء اللاتي رأيتهنَّ في محيطها جميلاتٌ بديعاتٌ كأنهنَّ فراشاتٌ تطير برقةٍ وخفةٍ، أجسادهن في بياض الحليب، صغيرة الحجم ولكن في تناسقٍ أنثويٍّ مثيرٍ.

في الفيلا حدثت لي صدمةٌ داخلية حالة من الانبهار جعلتني أهرب بوجهي إلىٰ صندوق العدَّة لأناول أبي ما يطلبة للشغل، مداريًا التأثير المدوىٰ الذي حدث بداخلي والذي جعلني أتساءل عن البنات اللاتي أعرفهنَّ هل هنَّ من جنس النِّساء فعلا؟ اللاتي أراهن أمامي الآن بالتأكيد هن حورياتٌ من الجنَّة، ثلاث فتيات بديعات مثل زهور الربيع المتفتحة يتحلقن حول امرأة من أجمل ماترىٰ العين وقفن لمتابعة العمل بفضول كأننا نقوم بعمل خارق، حاصرتني العيون بإعجابٍ مبتسمٍ حقيقيٍّ، واحدةٌ فقط كانت تتطلع إليَّ بنظرة مختلفة، أنثي فهدٍ تستعدُّ للوثوب علىٰ فريستها.. كانت أنضج الواقفات سنًّا وأجملهن كذلك، كل التفاتةٍ منها، وكل نظرةٍ، وكل حركةٍ تحمل إثارةً طاغيةً ونداءً يصعب تجاهله، فاتنةٌ وجميلة تستحقُّ لقب أنثىٰ الكون الأولىٰ.

سألتْ أبي وهي مازالت تخترقني بعينيها:

-هذا ابنك؟

ابتسم أبي قائلا بزهو:

-نعم ابني

ثم واصل حديثه بفخرٍ عن أمِّي التُّركية وعن قصة الحبِّ الرائعة التي نشأت بينهما برغم الفارق الاجتماعيِّ والتي توِّجت بالزَّواج بعد معاركَ عنيفةٍ بينه وبين أهلها وأنجب منها هذا الولد الذي ورث جمالها، ثم بصوتٍ مملوءٍ بالشَّجن وعينين دامعتين قال إنَّها ماتت وأنا لم أتعدَّ السابعة من عمري، كانت المرأة تستمع ولا تستمع، تهزُّ رأسها بنفس النَّظرة النَّهمة التي لا أعرف كيف أهرب منها، هزَّتني بعنفٍ لم أعهده من قبل، نداء عينيها لم أره أبدًا في عيون الفتيات علىٰ شواطئ رأس البرِّ كلها، لا أدري أين ذهب رجال هذا البيت، كأنَّنا نزلنا أنا وأبي في جزيرةٍ كل مخلوقاتها من النِّساء ذوات الحسن الفاتن الأخاذ، والأجساد اللَّدِنة، والعيون التي تسرق الألباب كالندَّاهة التي تتسلَّل إلىٰ العقل فتسلبه، فيصير كالسكران لا يدري إلىٰ أين المسير والمصير، وددت لو كنت وحدي في هذه الجزيرة لقذفت بنفسي في أعمق أعماق بحارها العاتية فأغرق، وأغرق، حتىٰ التلاشي، لولا وجود أبي واحترازي أن يرىٰ ابن التاسعة عشر بهذا النزق وهذا الجنون.

لم تفارق الوجوه اللينة الجميلة مشاعري أبدًا ولا نظراتهن

المعجبة والمندهشة من النجَّار الوسيم، أما نظرة المرأة المتوحِّشة التي كانت تلتهم وجهي وصدري وذراعيَّ المفتولتين فقد كانت تهز جسدي هزًّا وتعتصره حتَّىٰ النهاية.

من يوم أن رأيت المنطقة الأولي، كأنِّي عثرت علىٰ كنز مخبوءٍ، كنت أخشىٰ أن أرتاده، فأصبحت لا أذهب إلاَّ إلىٰ هناك لأتعرَّف علىٰ فتياتٍ مختلفاتٍ، لم يكن الأمر عسيرًا كما تصورت في البداية، فقد اكتشفت هناك أن المرأة هي المرأة، نظرةٌ ساهمةٌ تدوِّخها، وكلمة غزلية توقِّع أعتىٰ الفتيات حتىٰ لو تمنعت عليك، فعلت كل شيئ إلا إنَّني لم أجْرُؤ علىٰ لمس فتاة منهنَّ أبدًا، إلا أن تبادئني هي، فتتحسَّس يدي الخشنة ثم عروق ذراعي النافرة، ثم تترك لي مساحة شاسعةً للحبِّ.

كان الخلاف الكبير بين المنطقة الأولي وباقي شواطئ رأس البرِّ ظاهرًا في كلِّ شيئ، الشوارع والبيوت والنظافة العامة، التقاء النيل بالبحر في مشهد خلاب يعطي الجوَّ رائحة منعشة جذابة توقظ المشاعر والأحاسيس، وككل شيئ مختلف فالنساء هنا يختلفن اختلافًا هائلا عن نساء الشواطئ الشَّعبية، العامل المشترك بين النِّساء في الجهتين هو نظرات العيون المعجبة، والمندهشة، والمقبلة بغواية محبَّبة، لا أجد فارقا يذكر بينهنَّ كنساءٍ سوىٰ هذا الفارق الهائل في مستوي الجمال والذوق والرقة والنظافة.

ينتهىٰ الصيف وتنتهي النِّساء بكل ألوانها ومباهجها وتذهب رأس البرِّ في بياتٍ شتويٍّ عميق مستسلمة للرِّياح العاتية وغضب البحر الهائج الذي يتمدَّد فيغطي أغلب أرضها كأنَّه يغسلها وينظفها من آثار المجون والشقاوة، وأعود إلىٰ دمياط لأتدثر بذكرياتٍ جميلةٍ تهزُّ مراهقتي هزًّا، وأبقىٰ في دائرة بعض بنات الجيران اللاتي كنت أختلس منهن الدفء في موسم البرد حتىٰ جاءني أبي في صباح يوم شتويٍّ جميل وقال:

-سنذهب للعمل في الإسكندرية فالرِّزق هناك واسعٌ ووفيرٌ كما سمعت ومهنتنا مطلوبةٌ هناك وليس لنا أحدٌ في دمياط يستبقينا فيها.

وافقته فرحًا وبلا تردُّدٍ وقد اهتزَّ صدري بدفقةٍ حارةٍ صعدت إلىٰ وجهي متدفقة بدماء الشباب وأنا أتخيَّل عرائس البحر السكندريات وقد سمعت عن سحرهنَّ الأخاذ.. يُحِطن بي كملك متوج علىٰ قلوبهن.

وفي الإسكندرية اكتشفت أن بناتها لا يختلفن كثيرًا عن البنات اللاتي عرفتهنَّ في شواطئ رأس البرِّ الشَّعبية سوىٰ أنهنَّ أكثر قوةً وجرأةً وانتشارًا في الشَّوارع والأسواق.. وقد بهرتني أصواتهنَّ العالية ونظراتهنَّ الحادَّة المقبلة التي تزيد من فتنتهن وتعوِّض كثيرًا من قلة مستوىٰ الجمال لديهن.

أجَّلت اكتشاف هذا الكنز المخبوء حتىٰ يستقرَّ بنا المقام ولكنَّنا واجهنا ظروفًا صعبةً في البداية حيث جبنا الإسكندرية طولا وعرضًا فعملنا لشهور في غبريال، ثم المندرة، ثم انتقلنا غربا لبحري، والمنشية، وضاق بنا الحال حتىٰ قرر أبي العودة إلىٰ دمياط.

جلسنا في إحدىٰ مقاهي المنشية وفيما نحن نتحَّدث عن ذلك دخل علينا رجل يعرفه أبي من أيام دمياط.. فوجئ الرَّجل بوجودنا فصرخ فرحا برؤيته لأبي واحتضنه بشدة كأنه طوق نجاة أرسله الله إلينا.. وكذلك كانت سعادة أبي لاتوصف برؤيته، وجلسا يتحدثان ويتذكران الأيام الجميلة التي كانت بينهما.. ثم أصرَّ الصديق علىٰ دعوتنا للغداء في إحدىٰ المطاعم القريبة من المقهىٰ.

وأثناء تناول الطعام عرف من أبي قصَّة قدومنا إلىٰ الإسكندرية وما تعرَّضنا له من متاعب، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قرار العودة لدمياط، كان الرَّجل يستمع باهتمامٍ لأبي، وما إن انتهىٰ أبي من سرد قصتنا علىٰ صديقه حتىٰ فوجئنا به يضيئ وجهه بابتسامةٍ عريضةٍ قائلا لأبي:

-ما ضاقت حتىٰ يأذن الله بالفرج

ابتسم أبي ابتسامة مترددة متسائلة قائلا:

-خير ياحاج؟

قال صديقه بنفس البشر:

-لي ورشة نجارة كبيرة أسفل بيتي في كفر عبده، وهي مغلقة منذ عدة سنوات؛ لظروف كثيرة.. ما رأيك أن نتشارك فيها بالمناصفة بيننا أنت بالمجهود وأنا برأس المال.. كما يوجد سكن في البيت لكما.. ما رأيك؟

تفاجأ أبي بالعرض فانعقد لسانه وهو لا يدري كيف يجيب، فقال صديقه كأنما يقطع عليه التردد:

-ما رأيك أن تأتي الآن فترىٰ الورشة والمكان وإن شاء الله سيعجبك الوضع جدا، ولن أجد أفضل منك صدقا وأمانة لأشاركه

ثم انتصب واقفا بنفس حماس كلامه وقال:

-قم يارجل لاتتردد وتوكل علىٰ الله.. لعله سبحانه جمعني بك اليوم لأمر طيب.

لم يجد أبي بدًا من القيام والذهاب إلىٰ كفر عبده أمام إصرار صديقه.. أما أنا فكانت الفرحة تتقافز في جوانحي كالأطفال حين يملأون الدنيا صخبا وصراخا.

حين سمعت اسم كفر عبده أوَّل مرة ظننت أنَّها قريةٌ صغيرة بجوار الإسكندرية ولكنَّ المفاجأة أصابتني حين دخلنا إلىٰ أرقىٰ أحياء الإسكندرية علىٰ الإطلاق.. الهدوء يسيطر علىٰ الحياة كلِّها فلا تسمع إلا صوت الأغصان الكثيفة حين تحركها الرياح، وأصوات الطيور التي لاتتوقف.. تتراص القصور علىٰ الجانبين في فخامة رحيبة.. رائحة الأشجار بكل ألوانها تملأ الحياة فلا يتنفس الناس فيها إلا الهواء المخلوط برائحة الأزهار الذي يجوب الشوارع الرئيسية والجانبية.

كانت الورشة في منطقة نائية من كفر عبده بكل جمالها وروعتها.. وهي أسفل منزل قديم يملكه شريك أبي ويسكن فيه مع زوجته وحدهما حيث لم ينجبا سوىٰ ابنا واحدا يعيش في أمريكا، والبيت مكون من دورين مساحته كبيرة مربعة يطل علىٰ شارع واسع ومواجة لقصر كبير عال كأنه علىٰ ربوة وسط حديقة كبيرة وارفة الظلال يطل علينا ببهاء ساحر.

انتظمت في العمل مع أبي حيث عملنا وسكنَّا في نفس المكان.. استقرت الحياة وأعطتنا ما لم نكن نحلم به أبدا، سواء في العمل أو السكن أو الرزق فقد كان الرجل كريما معنا جدا وصاحبَ أبىٰ طول الوقت في العمل أو السهر.

بهذه الصداقة الوطيدة بينهما اكتسبت بشكل طبيعي مساحة

من حرية الحركة جعلت أبي يغض الطرف عني كثيرا خاصة بعد أن استقرت بنا الأحوال فانطلقت بشبابي في الحياة.. فاردا جناحي في فضاء الإسكندرية الفاتن.. التي أغوتني كفتاة ليل ساهمة العيون لا يقوىٰ علىٰ رد ندائها رجل يمتلك قوة الاندفاع التي تملأ كياني.. وأخذت لُبِّي بسحرها وهوائها واتساعها، فذبت بها عشقا وهياما.. فما يكاد يأتي المساء إلا واغتسلت وارتديت أحلىٰ ملابسي ثم تسللت من محيط الهدوء الذي يغطي رشدي إلىٰ دوائر الصخب والزحام فأقذف بنفسي في الترام المتجه إلىٰ محطة الرمل غارقا في الليل البديع، والأضواء البراقة.. فأبدأ بدخول السينما وأنتقي مكانا أستطيع منه مراقبة الأشباح السوداء التي ترتاد السينمات فقط؛ لتختبئ في الظلام فتختلس الكثير من القبلات والأحضان، ثم أتسكع في الشوارع لمراقبة الفتيات ومشاهدة المحلات، والجلوس علىٰ المقاهي وتدخين الشيشة.

لم تمر فترة طويلة حتىٰ تكونت لدي صداقات كثيرة.. واكتشفت من خلال الأصحاب أن أهل الإسكندرية يحبون الحياة ويتلذذون بكل لحظاتها ويغتنمون أي فرصة للانطلاق واللهو والضحك، فألقيت بنفسي في أحضان المدينة الفاتنة الجريئة لأفوز بكل لحظة في مباهجها ولأرتشف متعتها، فتعرفت مثلهم علىٰ فتيات كثيرات.. مختلفات الأشكال والنكهات.. غير

أن جميع عرائس البحر السكندريات يشتركن في صفة واحدة، أنهن في لحظة التوهج يمنحنك مذاقا حريفا، يلهب الجسد، ويشعل الروح.

ثلاث سنوات مرت كطيف جميل.. أو حلم شبابي لذيذ ينتهي باستيقاظ ممل، ها أنا أتثاءب بملء فمي وأفرد جسدي الجميل عن آخره لنفض النوم عنه واستقبال يوم جديد في الحياة.. قمت من فراشي استعدادا للنزول إلىٰ الورشة، أتحرك علىٰ مهل غير عابئ بنداء أبي المتكرر، والمهدد بعودتنا لدمياط إذا استمرت الإسكندرية في غوايتي.. أبتسم والماء الغزير يوقظ كل حواسي متذكرا ليلة أمس وأنا جالس في السينما وقد تخليت عن مجلسي في أعلىٰ الصالة وحجزت مقعدين لي ولفتاة تعرفت عليها في الترام ولم يمض علىٰ تعارفنا نصف ساعة حتىٰ كنا نجلس وسط الأشباح.. نستمتع بلذة اختلاس المتعة، ثم تاهت منِّي في زحام الخروج، ولم أكلف نفسي بالبحث عنها ولا أظن أنَّها قد فعلت ذلك، ثم أكملت السهرة في شارع صفية زغلول مع الندامي.. نتسكَّع في الشوارع ولا نتوقف عن اللهو والضحك.

نزلت إلىٰ الورشة فوجدت أبي واقفًا مع أحد البوابين يتحدثان باهتمام ثم التفت أبي حين أحسَّ بقدومي مناديًا علي.

أخذت صندوق العدَّة مجتازا الشارع العريض مع عم إدريس

بواب القصر الكبير المواجه لورشتنا لأصلح بعض الموبيليا هناك.. ثلاث سنواتٍ كاملةٍ ما تطلعت لهذا القصر ولا مرَّة ولا اهتممت به بعد انبهاري بروعة بنائه في المرَّة الأولىٰ التىٰ وقع نظرىٰ عليه، شيئٌ ما ذكرني بالمنطقة الأولىٰ في رأس البرِّ.. وتصوَّرت أنَّني سأقابل أنثىٰ الفهد هناك، والحوريات الفاتنات من حولها.. أفقت من أحلامي النَّزقة حين دخلنا من بوابة القصر العالية لأجد نفسي في عالم آخر، هدوءٌ ناعسٌ يسيطر علىٰ الوجود، وزهورٌ هانئة اغتسلت خدودها بقطرات الندىٰ العاشق، سرىٰ فيّ خدر لذيذ في الممر المؤدي للقصر بين الأشجار العالية أستنشق بعمق كل نسمةِ هواءٍ تمرُّ علىٰ فأملأ صدري بعطور قادمةٍ من الجنَّة بلا شكٍ.

لم يقل اندهاشي بحديقة القصر عن انبهاري ببهو القصر حين دخلنا.. دوختني التحف المتراصَّة وقطع الموبيليا في الأرجاء، وأسكرني تناسقها المتقن، والصَّمت الباهر المخيِّم علىٰ هذا الجمال.

انتبهت علىٰ صوتٍ رخيم يلقي التحية.. التفتُّ.. كانت سيدة القصر.. بوقار متحفظ تعلوه هيبة حزينة لم يخف جمالا أنثويّا رائقا.. رحَّبت بي ثم قادتني مع عم إدريس للدور العلويِّ لندخل غرفة نوم كبيرةٍ في حجم البيت الذي نسكن فيه تقريبا.. حجرة

تظللها ستائر العز، ثم أرتني مشكلة بالدولاب الكبير وتركتني بنفس الهدوء الذي استقبلتني به مع عم إدريس.

فتحت عينيَّ علىٰ آخرها باندهاش من روعة قطع الموبيليا ودقة تصنيعها، لم أتمالك نفسي فصرت أتحسسها بكفي وأتشمم رائحتها بوله عاشق، ثم انتقلت إلىٰ السرير.. متأملا باستمتاع تحفة فنية من الزهور المحفورة علىٰ الخشب بإتقان منقطع النظير، ثم أخذتني المتعة كل مأخذ فانتصبت واقفا وبحركة راقصة كأني أراقص كونتيسة فرنسية.. وحين استدرت بجسدي تصلب كياني كله حين فوجئت بكونتيسة فرنسية حقيقية واقفة أمامي وعلىٰ وجهها نظرة غريبة.. لا أدري كم من الوقت.. حتىٰ انتبهت علىٰ نحنحة عم إدريس، فابتسمت ببلاهة.. كأنني أداري خجلي فبادرتني بجرأة وهي تحدق في باهتمام:

-أعجبك سريري؟

واصلت ابتسامتي البلهاء وأنا أومئ برأسي.

نظرت إلىٰ عم إدريس متسائلة فقال لها:

-هذا النجار الذي سيصلح الدولاب.

التفتت إلي وبنظرة قوية علىٰ اتساع عينيها التهمتني من أسفل جسدىٰ لأعلاه، ثم توقفت عيناها في عيني بنظرة لا تنسىٰ.. غيرت مجرىٰ حياتي كلها.

نعم لقد تلونت حياتي بلون جديد منذ تلك اللحظة التي التقيت فيها بالابنة الوحيدة للباشا.. فقد وقعت في غرامي.. هكذا؟ نعم هكذا.. بل وأصبحت شغلها الشاغل، ولهفتها الكبرىٰ في الحياة.. وحلمها الجميل، فلا يكاد يمر يوم إلا وأنا في القصر لأسباب تافهة وأحيانا بدون سبب.. المهم أن تراني.. الشرفة العلوية للقصر والتي تطل علىٰ ورشتنا والتىٰ لم أرَ أحدً ا يقف فيها طوال السنوات التي مضت، أصبحت تقضي فيها أغلب الوقت حتىٰ أظل أمام عينيها.

لاحظ أبي هذه الزيارات اليومية التي لم تعد تخفىٰ علىٰ أحد فنهرني بعنف وقرر منعي من الذهاب.. يومُ غيابٍ واحدٍ ولم تطق الكونتيسة صبرا عليه.. وبكل جرأتها واندفاعها القوي فوجئنا بها تقف في وسط الورشة تتأمل كل شيئ فيها.. حتىٰ وصلت إليّ.. اقتربت مني وجذبتني من يدي وسحبتني إلىٰ القصر، والجميع في ذهول.. حتىٰ أبي لم يتفوه بكلمة، كأن ما يحدث من سنن الله الجارية التي لا يستطيع الإنسان أن يفعل لها شيئا.

في بداية الأمر ركبني غرور لا حد له.. وصار إحساسي بذاتي يكبر ويتعاظم، فلم أكن أتخيل أن تحبني ابنة القصور بهذا الجنون، أكبر ما كنت أتصوره ألا تتعدىٰ الحكاية الإعجاب فقط وأشياء أخرىٰ معروفة.. فهذا عادة ما يحدث معي، أما أن تقع في

حبي بهذا القدر فهذا ما لم أكن أتخيله.

إقترابها السريع والحميم ولهفتها العارمة.. أربكني كذلك، وأوقعني في حيرة جعلتني مشوش الفكر؛ حتىٰ أنني سرت دون أن أدري مسافة طويلة علىٰ شاطئ البحر.. وأنا أحاول أن ألملم شتات نفسي، هذه الحكاية مختلفة جدا.. ولا أدري إلىٰ أين ستأخذني، أعيش الآن البدايات الحلوة المعتادة.. صحيح أن مذاقها جديد وحلاوتها فاخرة.. إلا أنني أشعر في أعماقي بخوف ما يطل بعينيه، هل هو خوف من اختلاف البداية التي اعتدت عليها؟ أم شيئ آخر لا أعلمه، في كل المرات التي عرفت فيها امرأة.. كنت أعيش لحظات بلا بداية ولا نهاية محددة.. كنت أنتقي الواحدة منهن وبلمسة سحرية مني يقعن في حبي، بل ويتمنين أن تتواصل الحكاية بالزواج.. ولكنني ولا مرة شعرت بحب حقيقي ناحية واحدة منهن، كانت كل الحكايات لا تتعدىٰ الإشباع العاطفي الذي كان يروي حياتي ويجعل لها معنىٰ مختلفا يقبل بي علىٰ الحياة بغرور الشباب.. وبالتأكيد كانت تتعدىٰ قصص الحب إلىٰ إشباعات أخري.. من قبيل التنازلات التي تقدمها البنات عن طيب خاطر للحبيب في محاولة أن تغريه نداءات الجسد في تحقيق أمانيهن في الزواج..

وفي كل قصص الحب التي عشتها تنتهي بمجرد أن أشعر بالارتواء العاطفي.. أو أزهد فيها حين أجدها سهلة المنال؛ لأبدأ رحلة عاطفية جديدة.

ربما فكرت هذه المرة بنفس الطريقة في البداية.. وخاصة أنها من ذلك الكوكب البعيد المنال.. كوكب الجنة الذي رأيته في رأس البر، ولم أظن أن طموحها في حبي يمكن أن يتجاوز لحظات ممتعة نقضيها سويا.. ولكن اقترابها بهذه القوة جعلني أضطرب..

بنت الباشا فاجأتني بأنها لا تفكر بنفس طريقة البنات، فلم تتهافت عليَّ بنفس الطريقة التي كنت ألقاها من الفتيات.. لم تلف أو تدور حول الهدف الذي تبتغيه مثلما يفعلن، ولكنها اتجهت إليه مباشرة، لم تطلب مني متعة سريعة كما تصورت ومنيت نفسي.. فقد طلبت ببساطة معقدة أن نتزوج.

حين صمت وابتسمت لعرضها بالزواج زادت لهفتها كأمواج البحر العاتية التي تتسابق في الوصول للشاطئ فتهجم عليه بكل عنفوانها وقوتها.. فاقتربت بطريقة ملفتة وأكثر صراحة غير عابئة بأحد من حولي، واستشعر أبي إزاء حبها المفضوح خطرا داهما يحيق بنا ويحوطنا من حيث لم يكن يحتسب، فقرر – بلا تردد – الرحيل والعودة لدمياط مهما كانت النتائج.. ورفض رجاء

صديقه التمهل والتفكير في الأمر.. وأن الحكاية أبسط مما يتصور.. وأصر أبي في التعجل بالسفر وكان القدر أسرع منه، فقد دخل علينا عم إدريس فجأة والنقاش محتدم بينهما وقبل أن يتفوه الرجل بكلمة واحدة عاجله أبي قائلا:

-ياعم إدريس الله يخليك ابتعدوا عنا.. لن أرسل الولد معك أبدا

فقال عم إدريس باضطراب واضح:

-الباشا يريدك علىٰ وجه السرعة

انزعج أبي من المفاجأة وخيم الصمت علىٰ المكان للحظة حتىٰ قطعه أبي قائلا:

-الباشا يريدني أنا.. لماذا؟

-لا أعرف.. أرجوك لا تقطع عيشي، أسرع.. الباشا في منتهىٰ الغضب ولا يعلم أحد ماذا سيفعل

إتجه أبي إليَّ.. وعلىٰ وجهه علامات الانزعاج والخوف وأمسك بتلابيبي صارخا في وجهي:

-ماذا فعلت يا ابن الكلب؟ ماذا فعلت.. تكلم وإلا قتلتك.

أنقذوني بصعوبةٍ من صفعاته المتوالية علىٰ وجهي وجذبوه

بعيدًا عني.. وبعد أن هدأ قليلا أخذه عم إدريس إلىٰ الباشا، فسار معه وجسده مازال ينتفض ولا تقوىٰ قدماه علىٰ حمله فاستند إلىٰ عمّ إدريس.

كانت هذه أول مرَّةٍ يظهر فيها الباشا علىٰ مسرح الأحداث، وظهوره المفاجئ وطلبه لأبي جعل الخوف يستولي علىٰ كياني وأصابني بصمتٍ جفَّ له حلقىٰ فجلست منزويا في جانب الورشة كالمشلول لا يعرف كيف يتحرَّك.. وقد أصابني الخوف علىٰ أبي أن يحدث له مكروه.

غاب أبي في القصر لمدَّة عشر دقائق.. كانت بالنسبة لي كعشر سنواتٍ، ثم جاء عم إدريس مرَّةً أخرىٰ مهرولا وطلبني لمقابلة الباشا، فقمت وقدماي لا تكاد تحملني.. نظرت إلىٰ صديق أبي فلم أجد في وجهه إلا الحيرة والخوف.. استعجلني الرجل فتحركت معه بمشاعر متبلدة كالمنوم.. لا أدري ماذا سيحدث، وفي القصر رأيت الباشا للمرة الأولىٰ.. بدا لي حين وقع نظري عليه أنه ضخم جدّا كأنه عملاق من بلاد العجائب.. يقف في منتصف حجرة واسعة مد البصر وأنني وأبي قزمان صغيران يمكنه أن يدهسنا بحذائه.. وتكلم الباشا.. ولم أفهم شيئًا ولم أسمع شيئًا من ضخامه صوته.. وغلبني شعور لحد الخوف أنه

كلما خرجت كلمة من صوته الغليظ أن جسده يكبر ويتضخم وأننا نصغر ونتلاشىٰ، ثم رمقني الباشا بنظرةٍ جامدةٍ اقشعرَّ لها بدني وارتعش.. حتَّىٰ خيل إليَّ أنَّه سيخرج مسدسًا فيقتلنا.. سكت قليلا فجثم الرعب علينا كأننا ننتظر حكما بالإعدام ثم نظر إلىٰ أبي نظرة مخيفة.. وقال له كلمة واحدةً:

-يوم الخميس

فأجاب أبي برأسه بانحناءةٍ خاشعةٍ ثم رجع بقدميه خطوتين ثم استدار وانصرف.. سرت متعثر المشية وراء أبي الذي ركبته أحزان الدُّنيا كلها.. وأخذ يردِّد: لله الأمر من قبل ومن بعد، لم يتحدَّث معي.. ولم يقل لي أي شيئ.. ولم أجرؤ علىٰ سؤاله عمَّا سيحدث يوم الخميس.. حتىٰ الليل.

صباح اليوم التالي لزيارة الباشا جلس ثلاثتنا صامتين في الورشة صمت القبور.. كأن الحياة توقفت، ولم يقطع هذا الصمت إلا صوت سيارةٍ فارهة جاءت من القصر.. ناداني السائق فخرجت مسرعا فوجدته قد فتح لي باب السيارة الخلفي، التفت خلفي فوجدت أبي قد وضع وجهه بين كفيه، وصديقه كالمذهول يتطلع إلينا، وقفت حائرا حتىٰ قطع الحيرة صوت السائق يستعجلني.. كانت ابنة الباشا تنتظرني.. وعلىٰ وجهها ابتسامة

صباحية مشرقة.. أوسعت لي فجلست فالتصقت بي.. اقتربت بوجهها حتىٰ شعرت بحرِّ أنفاسها يلفح وجهي قالت هامسة وهي تزيح شعري من علىٰ جبيني وتطبع قبلة ناعمة علىٰ خدي:

-صباح الخير يا حبيبي

طربت لاقترابها وهمسها.. ابتسمت لها، فأشارت إلىٰ السائق فتحرك فقلت لها:

-إلىٰ أين؟

فقالت ضاحكةً:

-لنفصل لك بدلة الفرح

أخذني الاندهاش الممزوج بالخوف والفرح.. وزلزل كياني.. فنظرت لها ساهمًا.. فأومأت برأسها مبتسمة، ثم حضنتني بقوة.

منذ أن وقعت عينا البرنسيسة عليَّ وكأنَّها سحرتني بتعويذةٍ أذهلتني.. ومن وقتها وأنا لست أنا.. أشعر أن شيئًا ما يقودني، لا أعرف إن كنت سعيدًا أم حزينًا؟ لا أدري إن كانت مشاعر الحب التي أحملها حقيقية؟ هل أريد أن أتزوَّجها أم لا؟ لأول مرَّةٍ أشعر أنني مسلوب الإرادة هكذا، شعوري بفقدان القدرة علىٰ اتخاذ أي قرار جعلني أبرِّر لنفسي.. وأسوق أسبابًا كثيرةً وجيهة لهذا الزَّواج، فليس في الحياة أسهل من البحث عن أسباب لنبرر بها مواقفنا.

كان حفل الزَّفاف محدودًا جدًّا، الأصوات منخفضةٌ لضيوف قليلة حضرت لا أعرف أيًّا منهم.. ولم يتحدث معي أحد، الذي كان يضفي جوا علىٰ المكان هن مجموعة من البنات صديقات العروس تحلقن حولها.. كانت أصواتهنَّ عالية.. وملابسهنَّ قصيرة.. عارية الكتفين والصَّدر، الباشا يقف برفقة مجموعةٍ من الرِّجال يرتدون بذلاتٍ سوداءَ لامعةٍ.. يحتسون بعض كئوس خمر.. ويبدو علىٰ أحاديثهم الجدية والاهتمام، الهانم ترتدي فستانًا داكن الحمرة يتلألأ ويلفُّ عنقها عقد من اللؤلؤ.. تجلس بوقار.. قليلة الحركة والالتفات، علىٰ وجهها صمتٌ غريبٌ كأنَّها أحد تماثيل العصر الروماني.. بجوارها مجموعة من النِّساء يتحدَّثن بهمسٍ.. في تأمُّلي للحضور.. وجدت أبي يقف منزويًا صامتا قرب باب القصر.. وعلىٰ وجهه سحابة أسىٰ.. رفع عينيه ناحيتي فالتقت نظراتنا.. كأن عينيه تلمع بدموع مختنقةٍ، ابتسم لي وهزَّ رأسه كأنَّه يهنئني.. ثم انسحب في هدوءٍ وانصرف.

في غرفة النَّوم التي تقابلنا فيها أوَّل مرَّةٍ.. كانت ليلة الدخلة.. وفيها فقدت فجأةً كلَّ جرأتي وإقدامي.. تيبَّست في مكاني حائرًا ماذا أفعل.. أمَّا هي فقد جلست علىٰ طرف السَّرير تنتظر، ولما طال انتظارها رفعت رأسها مبتسمة وأشارت إليَّ بأصبعها.. فتحرَّكت نحوها، جلست قربها.. اقتربت مني حتَّىٰ التصقت بي،

وغمرني عطرها الأخَّاذ.. ولكنَّهما لم يفلحا في استثارة مشاعري الحسِّية، فكل المشاعر النزقة التي كانت تسيطر علىٰ حواسي، وكلُّ الرَّغبات الحارقة التي كان يهتزُّ لها جسدي أضحت باردةً.. كالثلج.

يبدو أنَّها أحسَّت بمشاعري المتضاربة.. فراحت تحدِّثني وتضاحكني، وتتعمَّد لمس يدي وذراعي بأطراف أناملها، تحدَّثت عن الفرح وعن صديقاتها اللاتي كن يحسدنها علىٰ وسامتي.. حتىٰ أن إحداهن مالت علىٰ أذنها قائلة: ستتزوجينه كله لوحدك، ابتسمت متجاوبًا معها وواصلت أحاديثها بتدفقٍ.. بينما سرحت عيناي بتفاصيل وجهها، حاجباها المرسومان بعنايةٍ كقوسين للرَّمي بسهام عينيها الآمرة.. وجنتاها بيضاويتان مستديرتان غارقتان في مكياج الفرح.. شفتاها مكتنزتان تتحرَّكان بطراوةٍ فتتناثر الحروف جذَّابة ألقة تخرج من أسنان بيضاء كاللؤلؤ، بدأت الحرارة تتسلل إلىٰ جسدي بهدوءٍ سرعان ما تدفقت حين تجرَّأت ومددت يدي فتحسَّست يدها فسكتت وتحدَّث عنها تورُّد خدودها.. فانتشىٰ جسدي، فأسرعت للارتواء قبل أن يهرب تدفق دمي الذي بدا هادئًا علىٰ غير عادتي.

أسبوعٌ كاملٌ لم نخرج من غرفتنا.. عدت فيها لكامل لياقتي وفحولتي.. لا نفعل شيئًا سوىٰ أن نأكل ونشرب ونمارس الحبَّ

ونتحمَّم.. كل هذا نمارسه بلا طقوس ولا حدود، همجيةٍ بدائيةٍ في كل مانفعله.. والتي كانت تعجبها إلىٰ حد الهوس، نتحدَّث ونلعب ونتضاحك.. علىٰ أي شيئ، شعرت أنني ملكت كل نساء العالم في هذه الأنثىٰ بنت الحسب والنسب والتي كانت تتحوَّل لغجريةٍ في الفراش فلا تحبُّ سوىٰ العنف والقوة إلىٰ حدِّ القسوة في ممارسة الحبِّ، كانت لهجتي الدمياطية المميَّزة تعجبها فتستمع إليَّ باندهاش طفوليٍّ، وتحاول أن تقلد طريقتي فتخرج الكلمات من فمها متعثرةً مضحكة.. تستمع باهتمام لأحاديثي عن رأس البرِّ ومغامراتي مع البنات تثير غيرتها قليلا.. ولكنَّها تعجبها وتشعر بزهو لأنها امتلكتني من دون كل النساء.

سعادة غامرة أرخت ستائرها علينا.. ارتشفت من نبعها حتىٰ ارتويت وشبعت، ثم امتلأت.. ثم.. مللت.. فبدأت أختنق.. فقد اشتقت للحرية، أما هي فقد بدت وكأنه لايشبعها شيئ.

جاءت الفرصة للخروج من الغرفة وكسر الملل وتجدد الهواء في رئتي بانضمامي للعائلة لأوَّل مرَّةٍ علىٰ مائدة الغداء، وبدعوتي للغداء علىٰ المائدة الرئيسية في القصر تصورت أنني بدأت أولىٰ خطواتي في سلم الارتقاء لمكانة اجتماعية كبيرة ستجعل لمستقبلي في الحياة معنىٰ.. وتلاحقت الصور لهذا المستقبل علىٰ رأسي وأنا أنزل بتؤدة وكبرياء علىٰ السلم الداخلي الرحيب

للقصر ذي السجادة الحمراء.

الجوُّ العام مخملي.. فاحش الثراء، كلُّ شيءٍ موضوع بعنايةٍ.. برغم الهدوء العام إلا إنني شعرت بالتوتر والارتباك بمجرد أن اجتمعنا علىٰ المائدة، الأب بجسده الضخم ووجه الأبيض المشرَّب بحمرة النَّعيم يجلس في مقدمة السُّفرة.. زوجته الجميلة كقطعة ديكور نادرة تجلس عن يساره، وابنته كالفراشة ترف في جلستها عن يمينه وأنا منزوٍ بجوارها كأنَّني أختبئ بها.. تسرَّب إليَّ إحساسٌ بأنني لا شيء، لم يرفع الأب رأسه ناحيتي أبدًا.. وعلىٰ وجه الأم طيف ابتسامةٍ جامدةٍ لا أعرف معناها.. صمتٌ عامٌ يلفُّ المائدة.. حتَّىٰ أصوات الملاعق والأطباق ميِّتة.. تاهت عيني في قطع الموبيليا فرحت أتامّل الألوان والرسومات وألوانها الجميلة.. بعقلٍ ساكن ومشاعر صامتةٍ، لم أستطع تذوُّق إلا القليل من الطعامً.. فكل البرتوكولات التي رأيتها علىٰ المائدة لم أستطع التعامل معها، الصوت الوحيد الذي رجَّ أركان الصمت هو سقوط ملعقتي علىٰ زجاج المائدة، ولكنه لم يحدث أيَّ أثر في الجالسين سوي زوجتي التي التفتت إليَّ وفي عينيها شيءٌ لم أفهمه.

الصدمة النفسية التي تلقيتها بمجرَّد أن خرجت من الغرفة لعالم القصر الكبير كانت قاسية.. أوَّل صوتٍ طرق أذني بعد

عودتي من جلسة الغداء كلمات أبي وهو يرجوني بحرقةٍ ليثنيني عن الزَّواج ويحدِّثني عن الفارق المذهل بيننا وبينهم.. تذكَّرت الآن دموعه الغزيرة إلىٰ حدِّ النهنهة ليلة الزفاف وهو يكاد يقبِّل يدي ألا أذهب.. وأن أمامنا فرصة أخيرةٌ للهروب لأيِّ مكانٍ في الدُّنيا.. كنت جامدًا كالصَّخر لا أرىٰ أمامي سوي المستقبل اللدن المريح، لم تفلح محاولات أبي في حمايتي من الصفعة القويَّة التي تلقيتها اليوم.. والتي اكتشفت من عنفها أنني هشٌّ ضعيفٌ.. كأوراق شجرة ذابلةٍ.. يطيرها الهواء من أقلِّ حركةٍ فلا تعرف إلىٰ أين تذهب بها الرِّياح ولا إلىٰ أي مكان ستلقيها.

عدت إلىٰ غرفتنا صامتا غارقا في شرودي لا أستطيع أن أفكر في شيءٍ محدَّدٍ.. شيءٍ ما يدفعني للبكاء، دمعت عيناي متهيِّئة للبكاء ولكنها توقفت حين دخلت عروستي ضاحكة مبتهجة قائلة:

-استعد لدينا زوار

-زوار؟

-نعم صديقاتي أتين لزيارتنا

-صديقاتك؟

اقتربت مني وقبلتني بدفء وقالت:

-مالك ياحبيبي؟ نسيت صديقاتي؟

-لا أبدا ولكنها زيارة بنات لماذا أجلس معكن؟

-جلوسك مهم يا عمري، لقد أتين خصيصا لك

قلت باندهاش:

-أتين خصيصا لي؟

-كفاك أسئلة غريبة سأنتقي ملابسك

قلت في نفسي.. ملابسي؟ تذكرت أنَّه ليس لديَّ ما أرتديه سوىٰ ملابس البيت الكثيرة التي كانت موجودةً في حجرة نومنا ليلة الدخلة، وقبل أن أسألها.. كانت قد قفزت مسرعة إلىٰ الدولاب وفتحته عن آخره وأخرجت لي ثيابًا كثيرة وفاخرة.. وأوقفتني كالدُّمية، وتلبسني الثياب الواحد تلو الآخر.. حتىٰ وقع اختيارها علىٰ قميص حريريٍّ أحمر لامع وبنطلون أسود ثم مشَّطت شعري بعنايةٍ، وانتقت لي حذاءً من أحذيةٍ كثيرةٍ فوجئت بوجودها كذلك وتركتني أرتديه.. وأخذت تنتقي من ملابسها الكثيرة حتىٰ وقع اختيارها علىٰ فستان مثير.. عاري الصدر والكتفين وقصير جدًّا.

أثناء ذلك طرقت الخادمة الباب معلنة وصول صديقاتها.. أوقفتني مرَّةً أخرىٰ أمامها.. وأخذت تعيد ترتيب ثيابي وفتحت

أزرار قميصىٰ إلىٰ منتصف صدري.. تحسَّست شعر صدري، ثم مدت يديها إلىٰ وجهي فأخذته بين يديها، وجذبتني وأخذت تقبل شفتي بعنف وهي تهيل شعري، ثم نظرت إليّ وهزت رأسها وهي ترفع حاجبيها معجبة بمنظري بعد قبلتها الشرسة.. جذبتني من يدي إلىٰ الخارج، وقبل أن نصل لصديقاتها شبكت ذراعها بذراعي.. ومالت عليّ وهي تسير بتؤدة كأنها سكرىٰ.

الرسالة التي كانت تريدها أن تصل إليهنَّ وصلت بسرعة البرق بمجرَّد أن دخلنا عليهن.. فقابلننا بصياح وضحكاتٍ عاليةٍ.. وقفزاتٍ في الهواء.. كأنَّهن يشاهدن فيلمًا مثيرًا، ارتسمت علىٰ وجهي ابتسامة خاوية، وأنا أتطلع لصويحبات زوجتي وهن مفتوناتٌ بمنظرنا.

القصر الذي رأيته للمرَّة الأولىٰ كأنَّه الجنَّة.. اكتشفت أنَّه عبارة عن قبر كبير، ربما يكون جميلا.. ولكن ما فائدة جمال القبر وساكنوه من الأموات.. صمتٌ عامٌّ لا حراك فيه يسيطر علىٰ كل شيء، الباشا يقضي أغلب وقته خارج البيت باستثناء يوم الجمعة.. وفي كل مساء يسهر في حجرة مكتبه يستمع إلىٰ الراديو وهو يشرب الخمر.. لا يتكلم إلاَّ مع الخادم، الأم التمثال الروماني الفائق الجمال والسكون.. يرتدي ثوب الحزن دائمًا، في عينيها نظرة انتظار لشيئ ما.. في الغالب لن يحضر، لا تتحدث

تقريبا مع الباشا، في كل المرات القليلة التي اجتمعنا فيها لم تتحدث معه أبدا.. ما هذه الحياة؟! ما سرها؟! نقطة الحركة الوحيدة في البيت كانت في ابنتهم.. تأمر بصلف وكبرياء لا حدود له وعلىٰ جميع الخدم طاعتها بذلة وانحناء، حتىٰ أنا زوجها اكتشفت منذ الليلة الأولىٰ ومنذ أشارت إلىٰ بأصبعها أنني دميتها المحببة والتي تقرر هي متىٰ تستمتع بها ومتىٰ تتركها، متىٰ تقرر أن تكون أنثىٰ مانحة.. ومتىٰ تكون باردة كالثلج، تستمتع بالحياة لأقصىٰ درجةٍ في كلِّ ألوان شخصيتها.. تستمتع حتىٰ بممارسة الغضب والثورة في وجه الجميع، كما تستمتع بممارسة الحبِّ.. أمَّا أنا فقد استجبت لها دون تردُّدٍ.. والحقيقة أنَّني استمتعت باستجابتي لها حينًا، وأعجبني هذا اللون الذي لم ألقه من النساء في أيام شقاوتي، أعترف بأنَّني ومع تسلل الملل إلىٰ نفسي.. وشعوري المهين أنني مجرد آلة للمتعة لاغير، وتفكيري في كسر حاجز الاختناق الذي بدأ يطبق علىٰ أنفاسي.. لم أتوقف عن الاستجابة لكل رغباتها بدون تردد، ولم يتعد رفضي لأفعالها حدود صدري.. خوفا من رؤية وجهها الآخر المريع معي.

علاقة الباشا بابنته غريبة فهو لا يتكلم معها إلا لمامًا.. لا يعاتبها أو يلومها أو يرفض لها طلبا، ومع ذلك تلمح دائما في عينيه نظرة غاضبة متنهدة حين ينظر إليها.. أما الأم فهي في واد

آخر.. لا علاقة لها من قريب أو بعيد بأي شيئ يحدث.

كل محاولاتي لفهم ما يحدث شبيهة بمحاولات كل علماء الآثار لفهم سر الهرم الأكبر، بنت الباشا الوحيدة التي لا يتوقف فمها عن الحديث تلتزم الصمت أو تغير الموضوع إذا حاولت فك طلاسم تلك الحياة، مرة واحدة ألحَّيْت عليها فتغاضبت.. غير أني أسرعت لاسترضائها قبل أن يتلون وجهها.

حتىٰ الحفلات اليومية اللاهية مللتها، سئمت الوقوف اليومي المتكرر وهي تلبسني كل يوم شيئا جديدا.. وتتفنن في جعلي ذكرا مثيرا لصراخ صديقاتها لدرجة أنها ألبستني مرة روبا حريريا بلا ملابس تحته، ووضعت علىٰ رأسي طرطورا طويلا يتدلىٰ في آخره كرة حمراء لامعة، وأخرجتني إليهن حافيا.. فصرخن وقفزن في الهواء ثم تحلقن حولي، وشعرت في لحظة أن بعض الأيادي تمتد إلىٰ الروب لتخلعه عني.. فضممته علىّ وأسرعت تشيعني ضحكاتهن الخليعة.

الحياة طلاسم.. ليس هناك حقيقة ظاهرةٌ ومفهومة فيها، كل شيئ أصبح معقدا ومبهما مهما بدا بسيطًا وسهلا.. كل الأشياء التي اشتهيتها وسعيت وراءها فقدت لذة حضورها فجأة بمجرد أن حصلت عليها، سؤال يعصف بعقلي.. هل يمكن لأحدٍ أن يجيبني علىٰ هذا الطلسم؟ لماذا تتحوَّل الحياة الهانئة التي لهثت

خلفها لملل خانق.. إلىٰ سجن قاتل؟

قدرتي علىٰ الاحتمال تضعف.. والمشكلة الأكبر أنني لا أستطيع أن أتوقف أو أتمرد عليها، وخياراتي كلها أصبحت محدودةً بالخوف.. وفي لجة الحيرة التي غرقت فيها.. تلقيت صدمة جديدة من حيث لم أحتسب، فقد توقف جسدي فجأة دون سابق إنذار، ورفض الاستجابة لغوايتها ونداء جسدها.. مثَّل ذلك صدمة هائلة لي.. ولها، لم تتحمَّل أن يخذلها جسدي الذي كان يهدر كالشلال لا يوقفه شيئ، ويمنح في أي لحظةٍ تتمنَّاه فيها.. حاولت وحاولت، وكلما أصرت علىٰ أن تنال غرضها.. لا يزداد جسدي إلا برودة وتيبسا، ممَّا حوَّلها في لحظاتٍ إلىٰ قطةٍ شرسة فنشبت أظافرها في وجهي حتىٰ أدمته وهي تصرخ غاضبة، لم أستطع إبعادها إلا بصفعةٍ هائلةٍ دوت علىٰ وجهها فأطاحتها علىٰ الأرض، لا أدري كيف جرؤت علىٰ فعلها.. فتكوَّمت تبكي وجسدها يرتعش.

كانت تلك الليلة آخر عهدي بها كزوجةٍ، فقد قامت بعد أن هدأ جسدها ونظرت إليَّ نظرة لا أنساها ثم تركتني وانصرفت.. ولم أعد أرها أبدًا.. وعشت في الغرفة أيامًا لا أفعل شيئًا كسجين في زنزانةٍ لا يستطيع الهرب.

الاختناق يقبض علىٰ رقبتي ويجثم علىٰ صدري.. لم أجد

حلا سوىٰ الهروب من القصر.. وكبرت الفكرة ونضجت، وقبل أن أهمَّ بكسر هذه الحلقة المفرغة التي أدور فيها.. فوجئت بها تسبقني وتحطمها.

هناك نوعٌ من الحيَّات تصيب ضحيتها بالشلل التامِّ حين تلدغها، ثم تلتفُّ حولها فتعصرها تمامًا، ثم تلتهمها كلها.. هذا اليوم أفقت أخيرًا من الشلل الذي أصابني لمدة شهر واحدٍ فقط.. بعد أن اعتصرتني الحية تمامًا ولكنها لم تأكلني بل لفظتني.. فقد استيقظت علىٰ طرقات الخادمة علىٰ الباب ولما رددت عليها قالت:

-الباشا يريدك في المكتب لا تتأخر عليه.

في المكتب تفاجأت بوجود أبي.. وثلاث رجال.. واحد فقط جالس وأمامه دفتر يكتب فيه والباقي وقوفٌ، لم أفهم شيئًا ممَّا يجري حولي فالوجوم مسيطر علىٰ الوجوه.. ولم أجرؤ علىٰ السؤال، فانزويت بجوار أبي في محاولة للاستئناس به حتىٰ انتهىٰ الرجل الجالس من الكتابة ثم أشار إلىٰ الوقوف فوقعوا علىٰ الأوراق وانصرفوا.. أشار الباشا إلىٰ أبي، فجذبني وقال وقع علىٰ الأوراق، فاقتربت وتطلَّعت إلىٰ الدفتر فوجدت ورقة مكتوبٌ عليها قسيمة طلاق.

هل كنت أحلم؟

بالتأكيد كان حلمًا.. أو بمعنىٰ صحيح كابوسا، أفقت منه.. فوجدت نفسي في بيتنا القديم المطلّ علىٰ نيل دمياط.. نعيد ترتيبه أنا وأبي في صمتٍ صاحبنا من لحظة أن خرجنا من باب القصر.. تغيَّر وجه أبي، شعرت أن عمره كله قد احترق في لحظة.. نظر لي ساعتها بأسىٰ وانكسار.. ولم يسألني عن شيئ مما حدث لي، ولكنني عرفت من صديقه الإسكندراني أنه أعد حقيبته وجلس في انتظاري لمدة شهر كامل، لم يقم بفعل شيئ سوىٰ الجلوس أمام الورشة في انتظار خروجي في أي وقت.. حتىٰ استدعاه عم إدريس إلىٰ القصر لأخذي بعد إتمام إجراءات الطلاق، توجهنا مباشرة إلىٰ محطة القطار بسيدي جابر رافضا إلحاح صديقه في البقاء ولو لليلة واحدة.

لم يتحدَّث معي أبي.. ولم أجرؤ أن أبادئه بالحديث، فقد شعرت من الحزن المرسوم علىٰ وجهه.. والدُّموع المتحجِّرة في عينيه.. بحجم المصيبة التي حطَّت علىٰ حياته جرَّاء فعلتي، أحسست أن أمله فيّ قد خاب.. وأنَّني دهست كل طموحه بسذاجتي، ونزقي وتهوُّري.

الصَّمت أصبح رفيقنا لمدَّة أسبوع كاملٍ، رتَّبنا فيها البيت،

واهتمَّ بالورشة فأعاد دهانها، واشترىٰ عدَّةً جديدةً للعمل.. وفي نهاية الأسبوع اشترىٰ كمِّية كبيرةً من الأخشاب المتنوعة.. ثم تحدَّث معي للمرَّة الأولىٰ منذ عودتنا من الإسكندرية.

طوال الأسبوع الذي قضيناه في دمياط.. كنت أعاني من شعور كبير بالخزي.. يصاحبه احتياج رهيبٌ لحضن كبير دافئ يحتويني.. يشعرني بالأمان، كل ليلة كنت أتذكر أمِّي وأتمنَّىٰ لو أنَّها لم تمت، علىٰ الأقلِّ كنت ألجأ إليها أحتمي في حبِّ أبي لها وكرهه أن يضايقها.. كما كنت أفعل وأنا صغير حين يهمُّ أبي بضربي لفعل صبيانيٍّ متهورٍ قمت به.. فكنت أجري إليها فأقذف بنفسي في حضنها الحصين، وكان أبي يتوقَّف إكراما لمقامها الغالي في قلبه..

في ليلة رأيتها في المنام، وعلىٰ وجهها حزن مغسول بالدُّموع، تلقفتني بين ذراعيها وحضنتني بعمقٍ حنونٍ.. راحت تمسح علىٰ رأسي كما كانت تفعل وأنا صغيرٌ.. حتَّىٰ شعرت براحةٍ آمنةٍ.

صمت أبي كان قاسيًا علىٰ جدا، تمنيت في لحظات لو صرخ في وجهي، أو ضربني، أوعاتبني بأي طريقة يحبها.. لكنت ارتحت، ولكنه عذبني بسكوته المنكسر، في مرة هممت أن أكلمه وأرجوه لخاطر أمي أن يسامحني، وقفت أمامه.. وترددت

الكلمات علىٰ لساني فتراجعت، كنت أعلم أنه سيكلمني في وقت ما وأنه لن يتركني هكذا في عذابي.. ولكن إلىٰ متىٰ؟ لا أعلم.. كنت كالمحكوم عليه بالإعدام لايدري موعد التنفيذ، حتىٰ كنا ليلة الجمعة صلينا العشاء في الزاوية المجاورة للبيت، ثم فتح الورشة، وجلسنا فيها صامتين.. بدا من جلوسنا أنه سيكلمني.. ولكن ماذا سيقول؟ هكذا مرت دقائق ثقيلة.. كان أبي ينظر للنيل وهو يتمتم بشفتيه هامسا ببعض الذكر ثم قال دون أن ينظر في وجهي:

-من الآن سنطوي صفحة الماضي تماما.. سننساها كأنها لم تحدث.. صحيح أننا لن نعود لسيرتنا الأولىٰ في العمل سويا فقد قررت أن أترك لك كل شيئ.. الورشة جاهزة للعمل.. وأظنك تعلمت المهنة علىٰ أصولها في ورشة الإسكندرية، أمامك اختبار صعب في الحياة، إما أن تنجح وتثبت لنفسك أنك رجل، أو سأعتبرك في عداد الأموات.

سكت أبي قليلا وقد انحدرت دمعة علىٰ خده.. مسحها بسرعة بظاهر يده كأنه لا يريدني أن أراها ثم قال:

-رحم الله أمك.. كانت نن عيني، وحبة قلبي.. تدري أنني لم أبكها عندما ماتت، فقد كنت أنظر إلىٰ وجهك اليتيم فأرىٰ عزائي

فيه وسلوتي، كنت فرحتي في الحياة.. ابني وابن الغالية، ولكنك لم تعد الآن في قلبي كما كنت.. الآن أمنحك فرصة لتقف فيها علىٰ قدميك؛ لتستعيد ذاتك من جديد.. أمنحك فرصة أخيرة لخاطرها.. فقد جاءتني في المنام ليلة زفافك، لم تتكلم معي ولكنها نظرت إلىٰ برجاء، نفس نظرة عينيها حين كنت تلجأ إليها لتحتمي بها مني.. عرفت ساعتها أنك ستأتيني مهزوما؛ لأجلها فقط أمنحك طريقا جديدا.. هو آخر ما لك عندي.. إذا فشلت في حياتك، وخيبت رجائي مرَّة أخرىٰ.. ساعتها سأذرف الدَّمع، سيسيل منهمرا علىٰ أمك حبيبتي التي تركتني وحيدا في الحياة أواجه نكباتها فيك.. أنت الآن بالنسبة لي ميت، فأحي نفسك بالجدِّ والاجتهاد، ساعتها ربما أسامحك، أما أنا فسأحيا بقية عمري في محراب الله، أخدم بيته لعله يريح قلبي ويلحقني قريبا بها.

كان يتكلم كلماته الأخيرة وهو يبكي بمرارة.. مما جعلني أقف مضطربا وقد تحجرت الدموع في عيوني، ثم اقتربت منه وانحنيت أقبل يديه وقدميه معاهدا إياه أن أكون عند حسن ظنه، فأزاحني بيديه وقام عني وتركني صاعدا إلىٰ البيت.

صباح يوم السبت صليت الفجر في الزاوية، ثم جلست علىٰ

النيل أجدد هواء رئتي بنسيم الفجر النقي، وأجدد روحي بأذكار كانت أمي تعلمها لي وأنا صغير، ثم توكلت علىٰ الله وفتحت الورشة.. جلست أكثر من ثلاث ساعات أتأمل أنواع الأخشاب وأتحسسها وأشمها، ثم أقلب في عدَّة الشغل التي حرص والدي علىٰ شراء الأجود منها.. تجولت في الورشة الكبيرة كثيرا بغير هدي.. كل ذلك وعقلي مشغول، من أين أبدأ!؟ وأدعو الله أن يهديني لبداية الطريق.. فقد كنت أريد بداية مختلفة، ثم لمعت في رأسي فكرة صغيرة.. كانت بداية الخيط.. أسرعت فأخرجت ورقًا أبيض وقلمًا رصاص.. ورحت أتتبع تلك الفكرة قبل أن تهرب مني.

حين حل المساء كنت قد رسمت كل قطع الموبيليا التي وقعت عيني عليها في القصر.. كلها بكامل تفاصيلها ونسب أحجامها.. كانت تتسابق علىٰ ذاكرتي واحدة تلو الأخرىٰ فأرسمها.. حتىٰ (الأويمة) المحفورة.. الورود وأوراقها.. والأشكال الزخرفية.. اجتهدت في تصويرها علىٰ أمل أن أعطيها لعامل ماهر في هذا المجال فيحفرها علىٰ الخشب كما أريد.. انتهيت تقريبًا ممَّا ورد علىٰ ذاكرتي.. وقفت أمام الأوراق أعيد تأملها بسعادةٍ غامرةٍ.. وشعور كبير أنني أبدأ حياةً جديدةً بشكلٍ صحيحٍ.. وفي التفاتة بسيطة فوجئت بطعام جاء به أبي دون أن

أشعر وتركه لي.. فأقبلت عليه بنهم.. كنت أرفع عينيَّ للنيل وأنا أمضغ الطعام بسرعةٍ وأبتسم له وأشعر أنه يجاوب ابتسامتي بحركة أمواجه الليلية التي تداعبها نسمات صيفٍ شعرت أنها كذلك تتجاوب معي.

كانت الفكرة التي بدأت في السَّير خلفها فاتحة خيرٍ.. بدأت أعمل وحدي دون الاستعانة بعمالٍ.. حتىٰ الأعمال الصغيرة التي يقوم بها الصبية الصغار في الورش قمت بها.. كنت أريد أن تمسَّ يدي كل جزءٍ في الموديلات الأولىٰ.. أن أصنعها بكامل تفاصيلها علىٰ عيني.. رغبت كثيرًا بداخلي أن أبذل أقصىٰ جهدي في الانطلاقة الأولىٰ.. أن أشعر بالتعب والإرهاق.. شيئٌ ما بداخلي يريد أن يذلَّ جسدي فلا يفكر في شيءٍ سوىٰ العمل.

كنت أشعر أن أبي يراقبني.. صحيحٌ أنه يأتي للورشة في فتراتٍ قليلة ولكنَّني كنت أحسُّ أنه يتابع نشاطي.. كل يومٍ أبحث في وجهه عن أي معنىٰ فلا أجد.. كان يتأمَّل ما أفعل بوجهٍ جامدٍ بلا ملامح للرِّضا أو الغضب.. غير أنَّني لم أتوقَّف عند الحيرة كثيرًا وواصلت عملي بنفس الهمَّة.. حتىٰ بدأ الإنتاج في الظهور.

في صباح اليوم التالي للانتهاء من غرفة النَّوم واتتني فكرةٌ غريبة وهي أن أضع غرفة النَّوم علىٰ الرَّصيف خارج الورشة.. وبدون تردُّدٍ نظفت الرَّصيف وخلال ساعةٍ واحدةٍ كان الموديل

الجديد خارج الورشة.. جاء أبي.. فبدت عليه علامات الاندهاش.. ثم اقترب من الدولاب فتحسَّسه بيد خبير.. وفتحه وأغلقه.. ثم هزَّ رأسه راضيًا ثم سحب كرسيًّا وجلس بجوار الدولاب.. كانت السَّعادة تقفز بداخلي كأنَّها طفل صغير يمرح في الحياة بالقفز والضَّحك.

لم تمرَّ ساعة أخرىٰ إلا وقد مرَّ رجلٌ بسيَّارته ثم توقف أمام الورشة ونزل وأقبل علىٰ غرفة النَّوم يشاهدها بإعجابٍ ثم أقبل علىٰ أبي يسأله عن سعر غرفة النوم.. فقال له أبي :

-أنا خادم المسجد.. معلم الورشة بالداخل.

خرجت مسرعًا وقد هزَّتني الكلمات التي سمعتها وقبل أن أتكلم بكلمةٍ كان أبي قد تركنا وانصرف قائلا:

-سأذهب إلىٰ المسجد استعدادا لصلاة الظهر.

كان يومًا مدهشًا.. فقد كان الرَّجل أحد تجار القاهرة وقد أعجبته غرفة النوم فاتفق معي علىٰ شراء اثني عشر غرفة.. ثم شاهد باقي النماذج المرسومة علىٰ الورق فأعجب بها وطلب من موديل السفرة نفس عدد غرف النوم.. غير ما انتقىٰ من التحف والأنتيكات.. ثم دفع لي عربونًا يقترب من نصف المبلغ الذي اتفقنا عليه.. وبدأ كل شيئ يتغيَّر للأحسن فاستعنت بعمال وصبية

صغار.. وبدأت بركات الجدِّ والاجتهادِ تحلُّ علينا.. واتسع العمل واحتجت لعمال أكثرَ لتغطية الطلبيات.. وطوَّرت في الموديلات بشكل أفضل.. تركت اللهو تمامًا فلم أستجب لدعوات الأصدقاء القدامىٰ في الذهاب إلىٰ رأس البر أو حتىٰ السينما.. فقد حرمت كل شيئ علىٰ نفسي.. حتىٰ رأسي منعتها من التفكير سوىٰ الوصول للهدف الذي أبتغيه.. وانفضَّ الأصدقاء من حولي وارتحت جدا لذلك.. وحرصت علىٰ تسليم العمل في مواعيده المحددة.. وفتح الله علىٰ أبوابا للرزق كثيرة فقد أتىٰ تجار من المدينة وخارجها.. وفي وقت وجيز كانت صناعتي قد راجت بشكل كبير وأصبحت من المعدودين من أهل المهنة المتميزين في دمياط.

استدار العام كله وأنا أبحث في عيني أبي عن نظرة رضا عما أفعله دون جدوىٰ.. برغم أنه تعوَّد كلَّ يوم أن يجلس علىٰ باب الورشة لساعاتٍ أثناء النهار إلا أنه لم يعرني أي اهتمامٍ.. كنت أحيانًا أرقبه دون أن يراني فأجده يدخل الورشة فيتأمَّل ما أصنعه باهتمامٍ ورضا.. ولكنه أبدًا لم يمنحني تلك النَّظرة.. وكأن كل هدفي وسعيي في الحياة انصب كله علىٰ لحظة يضمني فيها ويمنحني تسامحه.. ولكن هيهات فقد انطفأ أبي.. وغلف الحزن وجهه.. ولا يتكلم معي إلا قليلا.. لزم خدمة المسجد المجاور

لنا.. وأصبحت حياته محصورة في المسجد والورشة.. وإعداد الطعام لنا.. وفي المساء يجلس مع أصحابه القدامىٰ علىٰ مقهىٰ صغير في شارعنا.

جاء أبي ذات ليلة إلىٰ الورشة بعد صلاة العشاء علىٰ غير عادته وجلس حتىٰ ذهب العمال.. شعرت أنه يريد الحديث معي.. فجئت بكرسي وجلست بجواره.. فجلس صامتا يتأمل النيل.. ثم التفت إلي وقال:

-لقد خطبت لك ابنة شيخ المسجد أظنك تعرفه جيدًا.. عالم من أهل الله.. وأهل بيته علىٰ تقوىٰ وورع كما نسمع.. وتربيته أفضل تربيةٍ وسنذهب غدًا الخميس بعد صلاة العشاء لزيارتهم في البيت ورؤية العروس.

لم يترك لي فرصة لمناقشة الأمر فقد قام عني منصرفًا إلىٰ المقهىٰ ليلتقىٰ أصدقاءه، وتركني غارقا في اللاشيئ غير أن سكينة عامة أحاطتني منعتني من التفكير في شيئ.

بدت الحياة مختلفة عما كنت أعرفها.. كأنني ولدت من جديد بعد عودتنا لدمياط.. وجه جديد للعمر أستقبله، وخبرات جديدة أكتسبها كل يوم تعطي للحياة مذاقا مختلفا، تركني أبي أواجه الحياة وحدي لأكون سيدها لا تابعا لها.. ولكنني تركت لأبي أن

يأخذني من يدي إلىٰ طريق هو يريده دون اعتراض.. كأنني أكفِّر عن فعلتي تاركا نفسي لاختياراته موقنا أنه لايريد مني غرضا سوىٰ أن أكون سعيدا.. المهم أنني أتمنىٰ رضاه عني ومسامحتي، الشيئ الوحيد الذي كان يحيرني هو شكل العروسة.. ولكنني لم أجرؤ علىٰ سؤال أبي في هذا الموضوع.

كلما أقبلت علىٰ الحياة من وجهتها الصحيحة أعطتني لونا مدهشا من ألوانها المبهجة.. كان ذلك شعوري حين وقع نظري علىٰ عروسي المنتظرة بنت السادسة عشرة، فقد بدت كياسمينة صباحية.. أخجلها الندىٰ حين لامس أوراقها.. فرحة قفزت في صدري لا أدري من أين جاءت، وحطت علىٰ قلبي كعصفور كناريا ملأ الكون حولي بالحبور والسعادة.

معرفتي الطويلة في عالم النساء جعلتني في لحظة أتصور أنني تذوقت كل ألوانهن.. غير أنَّني رأيت في وجه فاطمة لونًا جديدًا من الحياة، عرفت لأوَّل مرَّةٍ كيف لروح أن تجذب روحًا فتقع في هواها، فتأسرها فلا ترىٰ في الوجود سواها.. كيف يشعُّ وجه امرأةٍ بالحنان والدفء بمجرَّد أن تبتسم.. آه يافاطمتي.. أين كنت في العصور السحيقة للضلال والغواية؟

لا أدري ما الذي كان يقوله أبي لوالدها وعلىٰ ماذا اتفقا، فقد كنت هناك معها نرتشف أولىٰ قطرات من شهد الحب الذي ملأ

كيانينا.. وأعطىٰ للحياة مذاق السلسبيل.. لحظاتٌ لا أدري كيف جاءت، ولا خطر علىٰ قلبي أن يقع الحبُّ هكذا.. أفقت علىٰ زغرودة انطلقت من النساء في الغرفة المجاورة.. حين أتم الرجلان قراءة الفاتحة.

إنشغل أبي في الشهور التي تلت ذلك ببناء دور جديد في البيت لزواجي وآثر أن يسكن شقة ذكرياته مع أمي.. واهتم بكل التفاصيل الصغيرة والكبيرة في بناء عش الزوجية.. تاركًا لي مواصلة عملي الذي بدأته دون أن يعطلني شيئ.

في زيارتي الأسبوعية لفاطمة توطدت علاقتنا بسرعة كأن ما بيننا كان موصولا منذ بدء الخليقة، ولأول مرة منذ أن عرفت النساء يتذوق قلبي رحيق الحب الصافي.. كلماتها الخجلي وحياؤها الدائم لم يخفيا في عينيها لهفتها في انتظاري.. واهتمامها الدائم بتفاصيل حياتي، ماذا أحب وماذا أكره.. وماذا أريد منها كزوجة.. أحاديثنا موصولة.. كقلبينا برباطٍ لا نستطيع معه صبرا.

قالت عينانا نفذ الصبر.. فذهبت لأبي مترددًا فأيقظته من النوم علىٰ غير عادتي، وهو أيضا تعجب من ذلك.. حتىٰ خشي أن يكون قد وقع مكروه ما استدعىٰ الإقدام علىٰ إيقاظه بهذه الطريقة، فتح عينيه وقد تعلق عليهما نظرة قلق فبادرته مباشرة:

-بعد إذنك يا أبي أريد أن أتزوج هذا الأسبوع.

نظر إلي طويلا.. اختلج وجهه كأنه يريد أن يبتسم.. يريد أن يضمني لصدره، لا أدري ولكني شعرت بسعادة غامرة ملأت قلب أبي ولكنه لم يمنحني شيئا مما أريد سوىٰ أن قال:

-الصباح.. رباح.

وجاء الصباح.. وجاء معه الرباح.. فقد ذهب أبي لوالدها واتفقا أن يتم العقد والزفاف ليلة الخميس.. وتيسر كل شيء، وابتسمت الحياة.. إلا أبي.. كان يبكي.

دخلت عليه غرفته ليلة الزفاف وقد ارتديت بدلة العرس أستعجله فوجدته قد ضم صورة أمي إلىٰ صدره وكأنه يناجيها.. شعر بي فالتفت، فلما رآني في حلة العريس تدفقت الدموع من عينيه فرحا وفتح ذراعيه علىٰ آخرهما وضمني لأول مرة منذ سنوات طويلة.. وارتميت في حضنه أضمه بكل كياني.

كان الفرح جميلا وتلقائيا.. شعرت أن أهل دمياط كلهم كانوا في العرس من كثرة الحضور، الكل مبتهج وسعيد.. راقبت أبي كثيرا، لأول مرة أراه سعيدا هكذا.. يستقبل الناس ويرحب بهم بكرم وافر ويضاحكهم، يتهامس مع أصحابه ثم ينفجرون ضاحكين، غمرني شعورٌ كبيرٌ لفرح أبي فظللت أحمد الله في سرِّي

علىٰ نعمته وكرمه علينا.

وذهب النَّاس كلُّهم.. وجاءت فاطمة، تفرقوا جميعا.. وأشرقت حبيبتي.. آه.. أين كانت هذه الدُّنيا وأنا حائرٌ!.. تائهٌ في الحياة، أين فاطمة من كل النساء الذين عرفتهن، كانت غارقة في خجلها.. حين اقتربت منها بشوق كبير فضممتها إلىٰ حضني الرحيب.. ثم بعد لحظات وبحياء يملأ طهارتها غلبها حبُّها وشوقها لضمي إليها فشعرت بمس كفيها يتحسس ظهري حتىٰ أحاطتني هي الأخرىٰ بذراعيها في أروع مذاق لحضن بين زوجين عاشقين، ثم أخذتني رياح الهوىٰ لطلب المزيد فاقتربت من شفتيها، فوضعت أصبعها علىٰ شفتي وقالت بتلقائية محببة:

-حتىٰ نصلي.. ركعتين لله كما فعل سيدنا محمد ﷺ فقلت وأنا أضغط علىٰ الحروف:

-

فضحكت.. فتلألأت.. فطار عقلي.. فحاولت الإمساك بها.. فقالت وهي تجري مني:

-حتىٰ نصلي.. كما علمنا سيدنا محمد ﷺ

فقلت مستسلما:

-

دارت الحياة دورانها.. وتلاحقت الأيام.. تلتها السنون.. وأنجبت ابنين وبنتا.. كانوا قرَّة عيني علمًا وخلقا واشتريت قطعة أرض كبيرةٍ خلف منزلنا وأعدت بناء البيت وتحوَّلت من عملي بالنجارة إلىٰ تجارة الموبيليا فجعلت واجهة البيت المطلة علىٰ النيل معرضًا للأثاث.. ومن الخلف أقمت ورشة كبيرةً امتلأت بالعمَّال وقطع الموبيليا الفاخرة، وفي سنواتٍ قليلةٍ راجت تجارتي.. وامتلكت سيارةً وعشَّة في رأس البرِّ حرصت علىٰ شرائها في المنطقة الأولىٰ والتىٰ لا يسكنها إلا المترفون، ورأيت بعد ذلك في رأس البرِّ وجهًا آخر غير الذي كنت أراه في شبابي، وجه السَّكينة في التقاء النيل بالبحر، الخشوع في مراقبة الشمس حين تشرق، وحين تغرب، الهدوء العام الذي يسيطر علىٰ الحياة فتهدأ الروح من صخب الحياة، وجه الابتسام واللهو الطاهر.. حتىٰ صارت رأس البر قبلتي القدمية هىٰ هىٰ ولكن بقلب مختلف.. يجعل سكني إليها هو الاغتسال الجميل من هموم ومشكلات الحياة.

فىٰ الاحتفال بسبوع حفيدي الخامس اكتشفت أن خمسة وعشرين عاما مرَّت من العمر دون أن أدري.. تأمَّلت فاطمة وهي تقف وسط الأطفال توزع عليهم الحلوىٰ.. كبرت في العمر.. وتغير تكوينها الجسدي كعادة النساء.. وتناثرت شعيرات بيضاء

في شعرها الحريري ولكن نقاء روحها ودفء نظرتها واهتمامها وحنانها لم يتغيَّر فيه شيءٍ.. بل زاد مع مَرِّ السِّنين، ما زالت تأسرني وتجذبني كما لو كانت عروستي في أيام زواجنا الأولىٰ.. منذ أن صلينا ركعتين لله كما فعل سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم.. وكأن الركعتين عهدها مع الله بأن ترعاني، لم تتأخر عني مرَّةً.. حتىٰ في عزِّ انشغالها بالأولاد وبأبي ثم بالأحفاد، امرأةٌ لم أر منها سوءًا قط.. تحمَّلت غياباتي الكثيرة في العمل.. وابتلعت غيرتها التي كانت تأكل قلبها حين تستشعر أن زبونة ما تحتال لتتكلم معي، أو تريد أن تصل لمبتغىٰ مني.. فلم تجرحني بكلمةٍ قط.. ربما كانت تلجأ لدموعها لتفضفض لها بمكنون غيرتها عليَّ.. اهتمَّت بأبي اهتمام ابنةٍ مُحبَّة بارةٍ بأبيها وكان أبي يشعر بصدق محبَّتها له.. فكان دائمًا يقف في صفِّها حين يراني متغيرًا عليها، كان ينظر إليَّ تلك النظرة الغاضبة التي ظلت ترتعد لها أوصالي منذ أن خرجنا من القصر.. فلا أردُّ له كلمةً حين يأمرني بتقبيل رأسها ويقول لي: لا تتكبَّر علىٰ نعم الله فيسلبها منك.

أبنائي جميعا تزوجوا في سن مبكرة.. حرصت علىٰ ذلك.. وقد أحطتهم منذ نشأتهم برعاية استثنائية خائفا عليهم من تجارب الحياة المريرة.. فكانوا نعم الأبناء لي ولأمهم.. يملأون البيت هم وأزواجهم وأبناؤهم بضجيج محبب إلىٰ النفس.

أبي يقف في وسط أحفاده تملأ عينيه نظرة سرور ورضا.. نظرة ظلَّ يحرمني منها برغم كل ما فعلته منذ أن عدنا من الإسكندرية.. ولكنه يمنحها لزوجتي وأبنائي وأحفادي.. حتىٰ إنَّني كثيرًا ما تمنيت أن يذهب كل ما أملك لأنال هذه النظرة من عينيه.. هذا الحرمان كان كثيرًا ما يظلل وجهي بحزن يحيِّر فاطمة.. ولكن ماذا أقول لها.. وكيف أحكي لها عن سرِّ حزني المجهول؟ في بعض الأوقات هممت بأن أفتح لها صدري وأحكي لها عن سري أنا وأبي ولكنني في كل مرَّةٍ كنت أتوقف.. وظلَّ السر مكتوما فلم يعرف عنه أحد شيئا.. خبَّأته في صدري أنا وأبي.. فلم نذكره يومًا حتىٰ لبعضنا البعض كأنَّه لم يحدث أبدًا.. ولكنه يعيش بداخلي لا أستطيع محوه.. حلقة مفقودة بداخلي تمنيت علىٰ الله كثيرا أن أجدها وأستريح.. مرارة تلك الأيام لاتزال عالقة بقلبي برغم حلاوة السنين التي عشتها في حياتي الجديدة.. كأن ثأرا بداخلي يصعب عليّ أن أنساه دون أن يبرد قلبي.. ومع ذلك مرَّت السنوات وعشت حياتي كما يعيشها باقي البشر.. رضًا عامٌ يخيِّم علىٰ النَّاس في دمياط.. حتىٰ في آلامهم وأحزانهم.. عشت مثلهم.. برغم ما أعانيه ولكنَّني علىٰ كلِّ حال عشت راضيًا بحياتي كباقي البشر الذين يسعون وراء هدف واحد وهم يحيون حياتهم بكلِّ أحزانها وأفراحها.. هو الموت.

وانتهت حفلة السبوع.. ومر الليل كله ولم أستطع أن أتذوق طعم النوم.. متسائلا هل سيأتي نفس النهار الذي نعيشه كل يوم.. وجاء النهار ولكنه أتىٰ هذه المرة بخبر جديد وعجيب قلب حياتنا رأسا علىٰ عقب.. فقد استيقظت الذكريات فجأةً بالحلقة المفقودة التي ظلت روحي تبحث عنها بعد مرور خمسة وعشرين عاما.. حين فوجئت بسيَّارةٍ فارهةٍ تقف أمام المعرض، انتفض قلبي من شدَّة الخفقان.. نفس السيارة.. التفَّ الشارع كله حولها، انفتح الباب وقلبي خائف وعيني زائغة.. خرج منها رجلٌ أسمرٌ تسيطر عليه الشيخوخة.. ويمشي ببطءٍ.. عندما وقف أمامي.. فوجئت أنه.. عم إدريس.

رحَّب به أبي كأنَّه صديق قديمٌ.. وبعد الغداء كسر عمّ إدريس كلَّ التساؤلات بداخلي حين قال:

-الباشا يريدك

-الباشا؟

فترة صمتٍ ودهشة خيَّمت علىٰ اللقاء، نكس أبي وجهه إلىٰ الأرض وهو يقول لله الأمر من قبل ومن بعد ثم قام عنَّا.. ثم استدار وهو عند الباب ونظر إليّ طويلا ثم انصرف.

التفت لعم إدريس بلهفة:

-الله يخليك ياعم إدريس أريد أن أفهم وبالراحة علي.

قال:

-الوقت يداهمنا سأخبرك في الطريق ، الأمر ملح لا يحتمل التأخير.

في السيارة المتجهة للإسكندرية اقتحمتني الذكريات كلها دفعة واحدة.. بحلو بدايتها ومرارة نهايتها، انسلت دمعة.. تبعتها أخرىٰ.. حتىٰ وجدتني أبكي، تركني عم إدريس حتىٰ هدأت.. والتفت إليه.. فابتسم بطيبةٍ وبدأ يحكي بلا توقفٍ:

-بعد خروجك من القصر بوقت قليل قامت ثورة يوليو.. وكأنها انتقلت للبيت، فقد سقطت الهانم الصغيرة مغمىٰ عليها في حفلة أعدَّتها بمناسبة طلاقها منك وفاجأنا الطبيب بأنَّها حامل، فتغيَّر كلُّ شيءٍ، الباشا الذي كان مسلوب السلطة استردَّها بحمل ابنته.. فمنعها من الخروج مطلقًا من القصر، واستسلمت الهانم فقد هدَّها الحمل وأمرضها واحتاجت لعنايةٍ كبيرةٍ، حتىٰ وضعت مولودة بعد معاناةٍ صعبةٍ في الولادة حتىٰ أوشكت علىٰ الموت.

-مولودة؟

-جيهان.. ابنتك

-ابنتي؟

-نعم ابنتك

غلبني الاندهاش:

-ابنتي.. سبحانك يارب.. كل هذه السنين وأنا لا أعرف.. هؤلاء بشر أم وحوش؟

-لا تسل هذا السؤال ياولدي.. فهم لايفكرون مثلك، وحساباتهم مختلفة عن حسابات الناس، أنت لم تمثل لهم سوىٰ نزوة لبنت الباشا.. كأي شيئ تشتهي أن تشتريه، وكانوا يعرفون أنك موجود لفترة قليلة معها.. ثم تتخلص منك.

-وما الذي دعاهم للإبقاء علىٰ الحمل؟

-الذي أصرَّ علىٰ بقاء الحمل هو الباشا.. فقد كان المخرج الوحيد للسَّيطرة علىٰ ابنته.. وبالفعل تمَّ له ما أراد.

-والهانم الكبيرة؟

-الهانم الكبيرة لم تكن أمها، بل كانت زوجة أبيها.. بعد طلاق أم الهانم الصغيرة.

تنهد عم إدريس وهو يلتفت للطريق ويواصل مفاجآته:

-الهانم الصغيرة نسخة كاملة من أمها.. ولذلك لم يستطع الباشا مواصلة الحياة معها، فطلقها وأخذ البنت لتعيش معه ليبعدها عن حياة أمها الماجنة ثم تزوج الهانم الكبيرة.

-ولماذا كانت حزينة دائما؟

-لسببين الأول أن الباشا كان يعشق طليقته.. وتصور أنه بالزواج سينساها، ولكنه لم يستطع نسيانها أبدا بل كان يذهب إليها سرا ليقضي معها ليالي ثم يعود حتىٰ اكتشفت الهانم ذلك، والأمر الثاني وهو الأهم أنها أنجبت ولدا كان كل سلواها في حياتها مع خيانات الباشا ثم مرض الولد فجأة مرضا عضالا احتار الأطباء فيه ومات عنها قبل أن يبلغ العاشرة من عمره.. فهدَّها الحزن عليه وزهدت كل شيئ ولم تعد تبالي بالباشا أو تلقي له أي احترام فقد سقط من نظرها للأبد فهجرت حجرة الزوجية وأقامت في غرفة أخرىٰ بمفردها وواصلت الحياة بهذا الشكل حتىٰ ماتت بعد نكسة يونيو بأيام قليلة.. دمعت عينا عم إدريس.. وقال:

-رحمها الله.. كانت امرأة طيبة، ولكن ساقتها أحكام القصور والعائلات الكبيرة إلىٰ حتفها.. رحمها الله.

تمتمت معه وأنا أريد أن أصل لمبتغاي في الحديث:

-رحمها الله.

ابتسم عم إدريس وربت علىٰ كتفي وقال:

-ابنتك تشبهك بدرجة لا تتخيلها.. نفس لون شعرك

الكستنائي وصفاء العينين.. وبياض بشرتك.. حتىٰ النمش الذي يملأ وجنتيك وكنت تتباهىٰ به في صباك.

دمعت عيناي رغما عني وقلت له:

-احكِ لي ياعم إدريس عنها.

-حاضر ياولدي.. ولادتها كانت كالشمس أشرقت في القصر بعد ليلٍ طويلٍ.. جاءت كأنها توبة من الله نزلت علىٰ الباشا، فقد أقلع تماما عن الخمر.. وابتعد عن طليقته، وسخر نفسه لها ولسعادتها فلا يطيق أن يراها مريضة وقد شاهدته مرات عديدة يبكي خاليا لمكروه أصابها، ورفرفت البهجة علىٰ القصر.. حتىٰ الهانم الكبيرة وبرغم أنها لم تتخل عن حزنها إلا أنها أحبت الطفلة الصغيرة حبًّا كبيرا كأن الله عوضها عن فقيدها، فكان الجميع حتىٰ الخدم يفرحون حتىٰ لصوت بكائها، ويتسارع الجميع لحملها وخدمتها، تدري يا ولدي لقد نشأت مختلفة تماما عن أمها.. كانت طيبة وهادئة، تملأ المكان بالرَّحمة والود، واصلت تعليمها بتفوقٍ وتخرَّجت من كلية الهندسة.. حتىٰ أنَّها فاجأتنا يوما بتغطية شعرها وهي في الكلية.. كتلك الموضة التي انتشرت هذه الأيام في دوائر النِّساء قائلة أن الحجاب هو أمر الله الواجب فعله علىٰ المرأة.. وازدادت جمالا ومحبة وتوقيرا في نفوسنا جميعا أكثر وأكثر.. حتىٰ عريسها انتقته من

بين عرسان كثر وفضلته لصلاحه وتقواه.

سكت عم إدريس وكأنه ينتظر سؤالا فقلت له:

-وأمها؟

-سامحها الله لم تتغير.. تزوجت مرتين، ولم يطق واحد منهما البقاء معها.. أقل لك شيئا؟ كانت كأنها تبحث في كل زوج منهما عنك.. ولم تجده.

التفت إلىٰ الطريق وقلت لنفسي.. الرَّجل الطيب يتصوَّر أنَّها كانت تحبُّني، لا يدري أنها كانت تبحث عن رجل بدائي.. يمارس معها الحب بهمجية وفحولة استثنائية، أو ربما كانت تبحث عن دمية تتلهىٰ بها أو تتباهىٰ بها أمام صديقاتها.. ولم تجده في واحد منهما.. ابتسمت وانا أعود بوجهي إليه وقلت:

-هذا زمان انتهىٰ ياعم إدريس.. الصفعة التي تلقيتها علىٰ وجهي لم تزل تؤلمني ولم أجعل نفسي تنساها يوما.. بل هي التي جعلتني رجلا ناجحًا في حياتي، فقد تركت الطيش وطريق النساء كله وتفرغت لأبي وزوجتي وأولادي حتىٰ الآن.. المهم.. ما الذي ذكرهم بي الآن؟

-في نهاية الأسبوع ستزف جيهان هانم إلىٰ عريسها.. أي بعد خمسة أيام.

-فرح ابنتي؟

-نعم.. وقد أصرَّ الباشا علىٰ أن تحضر الفرح وتوقع علىٰ عقد زواجها بصفتك والدها.

-وهل تعرف ابنتي أن والدها حي يرزق؟

-الحقيقة لا أعرف.. ولكن الباشا استدعاني في مكتبه.. مساء أمس وطلب مني أن أذهب لدمياط وأحضرك معي.

-لم يقل لك شيئا آخر؟

-أنا مجرد خادم.. تتصور أن يتحدث معي الباشا في تفاصيل عائلية؟ ولكن علىٰ كل حال أتصور أنها تعرف أن أباها موجود ولكنه غائب لسبب ما.

سكت ولم أرد فقد انشغلت بمدخل الإسكندرية الذي لم أره منذ خمسة وعشرين عاما.. وبدأت أرقب الشوارع والناس، وأتنفس بعمق رائحة الإسكندرية التىٰ لم تتغير أبدا كفاطمة، ربما أراها الآن بوجه مختلف كما أرىٰ رأس البر، وبدأ قلبي يخفق، والتوتر يجتاح مشاعري ونحن نقترب من منطقة رشدي.. وحين دخلنا إلىٰ كفر عبده لاحظ عم إدريس توتري فوضع يده علىٰ كتفي وقال:

-إهدأ يا ولدي.. لعله خير لك إن شاء الله.

توقفت السيارة أمام باب القصر.. فالتفت إلىٰ البيت المواجه له.. فلم يكن للحياة فيه أثر.. فسألت عم إدريس فقال:

-مات الرجل.. ثم زوجته بعد عدة سنوات.. ومات معهما المكان فكما تراه فقد صار أثرًا بعد عين.

دلفت السيارة من بوابة القصر.. ففتحت عينيّ عن آخرهما أتأمل المكان.. كأنني تركته بالأمس، نفس الجمال البديع، وعطور الزهور المبهجة تملأ الكيان.. بشذاها الطيب.. لتفرح القلب الحزين، انتبهت حين ناداني الرجل وقد خرج من السيارة وفتح بابها فنظرت فاكتشفت أن السيارة لم تقف أمام باب القصر ولكنها توقفت أمام مبنىٰ ملحق به يقع خلفه.. فخرجت وحرصت علىٰ ألا أرفع وجهي لشرفاته مخافة أن أجد أحدًا ينظر إلي.. دخلت مع عم إدريس المبني والذي كان عبارة عن غرفتين واسعتين.. غرفة نوم وأخرىٰ للاستقبال.. وحمام ومطبخ ، نظرت بتساؤل لعم إدريس فقال:

-هذا مأواك هذه الأيام فخذ راحتك.

-وابنتي متىٰ أراها؟

-ستراها.. اطمئن ياولدي.. لم يكن للباشا أن يأتي بك من آخر الدنيا دون أن تراها.. سأتركك الآن لتستريح وسأخبره بمقدمك.

لم أستطع الردَّ عليه واستسلمت لكلماته.. بعد ثلاث ساعات سمعت طرقات علىٰ الباب، وحين فتحت فوجئت به مرة أخرىٰ ومعه رجلان.. الأول تذكرته فقد كان الترزي الذي فصل لي بدلة الفرح.. وتذكرني كذلك، فأخذ مقاسي.. وتعجب مبتسمًا وقال أنه جاء معه بمقاسي القديم ووجد أنه لم يتغير أبدا ثم ضحك أكثر وقال: حتىٰ وجهك لم يتغير كثيرا كأن الزمن لم يمر عليك، لم أتجاوب معه فقد كنت مضطربا جدا من أسلوب التعامل معي والذي لم يتغير.

أما الرجل الثاني فقد كان الحلاق.. جلست تحت يديه ساعتين فقد تعامل مع وجهي كله بعناية فائقة حتىٰ أنني نعست منه عدة مرات.. ثم تبعته امرأة بدينة أخذت تقلم أظافر يدي وقدمي بعناية وأزالت عنهما النتوءات والجلد الزائد.. دخل عم إدريس ومعه طعام وفاكهة فبادأته بالكلام:

-هل تنون تزويجي مرة أخرىٰ؟ لم كل هذا؟!

فقهقه عم إدريس حتىٰ جعلني أبتسم من منظره وهو يضحك.. وقال: قم لتتناول طعامك.

في صباح اليوم التالي تسارعت الأحداث فقد جاء الترزي بالبدلة كاملة وحذاء جديد وألبسنيها وعدل فيها بعض الشيئ ثم

نظر لىٰ بإعجاب وربت علىٰ كتفي وانصرف.. ثم جاء عم إدريس وقال:

-تجهز الباشا يريدك.

فقلت بقوة:

-أنا جاهز..

وانصرفنا إلىٰ المجهول.

كنت أكثر جرأةً وتحفزًا من ذي قبل وأنا أدخل من باب القصر.. كنت مستعدًّا لأن أواجه الدُّنيا كلها لأرىٰ ابنتي، في البهو الفسيح شعرت بأن الهدوء الذي يسيطر علىٰ المكان مختلف.. نفس قطع الموبيليا الفاخرة لم تغادر مكانها.. غير أن مسًّا من البهجة أصاب روح المكان لا يخفىٰ علىٰ الزائر.. أخذني عمّ إدريس مباشرةً إلىٰ المكتب.. دخلت بثباتٍ بادٍ.. وألقيت السلام بصوت مسموع جعل الباشا الذي بدا عجوزا مترهلا يرفع رأسه ناحيتي.. ثم وقف وجاء بتواضع غير معتاد منه فمدَّ يده ليسلم عليَّ بابتسامة ودودة.. نظرت إلىٰ يده ثم إلىٰ وجهه وقد اضطربت قليلا من المفاجأة، فنغزني عمّ إدريس فمددت يدي بالمقابل فسلمت عليه.. ثم أشار بيده إشارة ترحيب.. فتقدمت من عدة رجال جالسين وقفوا جميعا فسلموا عليّ بترحاب جميل.. كان

واحد منهم شابًا بهي الطلعة خصني بسلام حار حين قدمني له الباشا قائلا:

-أهلا يا عمي.

جلسنا جميعا ورحت أختلس النَّظرات إلىٰ الجميع وخاصة زوج ابنتي الموعود.. وبدأت علىٰ حين غرةٍ مني إجراءات كتب الكتاب علىٰ الورق.. حتىٰ فوجئت برجلٍ كان المأذون يقول لي: ضع يدك في يد العريس.. وردد ورائي فاستجبت بتلقائية.

كنت أردِّد بقلبٍ خافق الوجدان.. ما يقوله المأذون.. ممنيًا نفسي بدخول ابنتي علىٰ لأضمها لصدري، أظنُّ أنني لن أملك دموعي لمرآها، هل تراها تشبهني فعلا كما قال عم إدريس أم إنه يبالغ؟

انتهت الإجراءات وتبادل الجميع التهاني.. رفعت عينيَّ ناحية الباشا فوجدته يمسح دموع الفرح.. وقبل أن أفكر أو أتحدث جاءني عم إدريس وهمس لي.. هيا ياولدي.. فقلت محتدًّا ولكن بصوتٍ هامسٍ كذلك:

-إلىٰ أين؟

-إلىٰ حجرتك.

-وابنتي.. ألن أراها؟

-تعالىٰ الآن.. وسنتكلم فيما بعد.

في الحجرة تركني عمّ إدريس أكثر من ثلاث ساعاتٍ بلا خبر ولا كلمةٍ تريحني.. عقلي لا يتوقف عن التفكير في كل ما حدث لىٰ أمس.. لا أريد أن أشعر بهذا الشعور القديم الذي منحته إياي الحية التي تزوجتها.. لا لن يحدث هذا معي.. خلعت البدلة وارتديت ملابسي التي أتيت بها.. وشيئ ما يدفعني بقوة لاقتحام القصر.

حين فتحت الباب للخروج وجدت عم إدريس بوجهي.. قلت له صارخا:

-أين أنت؟ لماذا تركتني هكذا؟

قال بتردد:

-عليك أن تغادر الآن الإسكندرية وتعود لبلدك.

قلت بنفس الصوت العالي:

-لماذا؟

-وقعت مشكلةٌ كبيرةٌ بسببك بين الباشا وابنته وهي مصرَّةٌ ألا تحضر الفرح، المشكلة في القصر كبيرة ويمكن أن يلغىٰ الزواج بسببها أرجوك ياولدي ، إذهب الآن.. وسوف ترىٰ ابنتك بعد ذلك.

صرخت في وجهه حتىٰ ظننت أن الكون كله يسمعني:

-لا.. هذا كان في الماضي.. أما الآن فلن أغادر حتىٰ أرىٰ ابنتي ولو لثانيةٍ واحدةٍ

قال عم إدريس برجاءٍ:

-أرجوك ياولدي.. اهدأ.

وكأنَّ كلمة اهدأ زادت من غضبي فأزحته من أمامي بدفعةٍ قويةٍ جعلته يتهاوىٰ إلىٰ الأرض.. وسرت متوجهًا إلىٰ باب القصر فقابلني بعض الخدم كانوا قد اتَّفقوا معهم أن يمنعوني بالقوة تحسبا لأن أقدم علىٰ ذلك، فضربت بعنف كل من واجهني وتلقيت عدة لكماتٍ في وجهي أدمت أنفي، ولكنني استطعت أن أتخلَّص منهم بقوَّةٍ جبَّارةٍ ملكتني حتىٰ وصلت لباب القصر.. كانت أزرار قميصي ممزقة، فتعرَّىٰ صدري، والدم يسيل من أنفي.. دفعت باب القصر بعنفٍ، ووقفت في وسط البهو الرئيسي صارخا بأعلىٰ صوتي:

-جيهان.. جيهان.. أنا أبوك.. أريد أن أراك.

وارتجَّ القصر بمن فيه.. وجاء الخدم وأحاطوا بي، ثم خرج فجأة الباشا ومعه طليقتي، ثم ابنتي، تسمر الجميع في أماكنهم كالتماثيل.. والتقت عيوننا.. تحركت نحوي ببطءٍ ثم توقفت في

منتصف الطريق، والتفتت بتردد إلىٰ الباشا فأومأ إليها برأسه مبتسما فأسرعت إليَّ حتىٰ وقفت أمامي تتأمَّلني.. لحظاتٍ ملأ فيها شوق الدنيا قلبينا.. ابتسمت لها فغلبنا البكاء فألقت بنفسها في حضني.

قضت جيهان معي اليوم بطوله في مسكني.. ألغت بإصرار كل مواعيدها مع الترتيبات النهائية للفرح، تحدَّثنا في كل شيءٍ، رويت لها عن حياتي السابقة كلِّها بلا تردُّدٍ ولا مواربة، وحكت لي عن حياتها كذلك وشعورها المرير بيتمها وأمنيتها الدَّائمة أن تعرف أي شيء عن أبيها الغائب والذي لا يتحدث عنه أحدٌ.. وعرفت منها أن الباشا كان قد وعدها بمفاجأةٍ ستسعدها، وأنَّني كنت هذه المفاجأة غير أن أمَّها عندما عرفت بقدومي وحضوري عقد الزواج انقلبت غاضبة علىٰ الجميع وأخذت تهدِّد وتتوعَّد بإلغاء الفرح غير أن اقتحامي للقصر غيَّر كل شيء.

قررت جيهان أن تذهب معي إلىٰ دمياط لترىٰ أبي، لم يستطع أحد منعها من قرارها.. فقد سكت الباشا كأنَّه موافق، ذكرها فقط بالإجراءات التي تسبق الفرح وضيق الوقت، أمُّها أغلقت علىٰ نفسها حجرتها غاضبة.. ولم ترد علىٰ ابنتها.

في دمياط جاءت ابنتي لتعيد أبي إليَّ.. كأنَّما أرسلها القدر ليرضىٰ أبي أخيرًا.. ويمنحني نظرة الرِّضا التي حلمت بها طوال

عمري.. جاءت جيهان كما جاءت من قبل فاطمة.. لتعبر بحياتي إلىٰ كمال الرِّضا.

دخلت علىٰ أبي في حجرته.. وقبَّلت يده ورأسه.. ثم قلت له:

-عندي لك مفاجأة.

ابتسم مازحا:

-لا تفعلها مرة أخرىٰ.

حينها دخلت جيهان الغرفة ووقفت أمام أبي الذي تطلع لها باندهاش ثم التفت إليَّ وعيناه تسيل بالأسئلة فقلت له:

-جيهان حفيدتك.

حدق أبي باندهاش في جيهان كأنَّه غير مصدق.. فقطعت اندهاشه وألقت بنفسها في حضنه وقبَّلت يديه.. وضمَّها أبي باكيًا غير مصدق.. ثم نظر إليَّ وهو يمسح دموعه وقال بنهنهة طفل صغير:

-الآن فقط سامحتك.. الآن فقط سيغفر الله لك.. الآن فقط سامحتك.

وأخذ يردِّدها حتىٰ سالت دموعي كالشلال الذي لا يوقفه شيئ.

وجود جيهان في الحياة كان مفاجأةً كبيرةً للجميع.. طلتها

المبتسمة الحنونة خفَّفَ من أثر الصدمة.. وقف أبي بجانبي لأوَّل مرَّةٍ في حياته ضدَّ فاطمة ممَّا جعلها تسكت علىٰ مضضٍ فقد غضبت حين عرفت أن في حياتي قصةً قديمةً ولم تعرف عنها شيئا برغم الحبِّ الكبير الذي جمع بيننا طوال رحلة زواجي بها.. قصة الحبِّ التي عشتها أنا وفاطمة جعلها لا تتصوَّر أبدًا أن يكون بيننا أسرارٌ؛ ممَّا أحزنها كثيرًا.. ومع غضبها وخصامها لي لأوَّل مرَّة في حياتها فقد كنت أشعر أن حبًّا جمع بين قلبها وقلب جيهان، وبرغم تكشيرتها لي فقد أحسنت استقبال جيهان، وضمَّتها إلىٰ صدرها بحبٍّ وودٍّ، وأحسنت ضيافتها، واستجابت جيهان بتلقائيةٍ لردِّ فعل فاطمة.. أما أخواتها فقد جاءت المفاجأة لهم كهدية عيد لم تخل من غمزاتٍ وإشاراتٍ بين الولدين، وسعادة لوجود أختٍ في حياة ابنتي.

قضت جيهان معنا يومًا كاملا.. كان من أجمل أيَّام الأسرة كلها.. لازمت أبي طول الوقت تحدِّثه وتمازحه كأنها عاشت معه عمرها كله.. وانتهىٰ اليوم كومضة فرح تأتي علىٰ عجل.. لترحل إلىٰ أناسٍ آخرين كأنَّها تريد أن تسعد النَّاس كلهم قبل أن تنتهي الحياة.

في اليوم التالي عدت معها إلىٰ الإسكندرية بعد أن تجادلنا كثيرًا في مسألة حضورىٰ الفرح فقد أصرَّت علىٰ أن أحضر

فرحها.. وكنت أريد أن تتصالح مع أمها.. ولكنَّها تمسكت برأيها حتىٰ قلت لها مبتسمًا:

-لم تأخذي شيئا من أمك سوىٰ العند.

كان الفرح فخمًا كعادة القصر.. والضُّيوف من طبقات المجتمع الكبرىٰ.. ارتديت بذلة جديدةً جاهزةً اشترتها لي ابنتىٰ من بيت أزياء راق، فقد اهتمَّت بي كأنَّني أنا العريس.. وأهديتهاعقدًا من اللؤلؤ الحرِّ حرصت علىٰ أن تطوق به عنقها مع فستان الزفاف.

جلست جيهان بجوار عريسها، كانا أجمل عروسين رأيتهما في حياتي.. قرأت في سرِّي سور الإخلاص والمعوذتين، ودعوت الله ألا تصيبهما عيون الحاسدين.. حرصت علىٰ ألا أقف في مكانٍ ظاهرٍ حتىٰ لا أتسبَّب في مشكلةٍ في فرح ابنتي فانزويت في ركن اكتشفت أنَّه نفس المكان الذي كان أبي يقف فيه.. عندما وقف في فرحي حزينًا دامعًا كأنَّه في جنازتي لا فرحي.. وتعجَّبت من تصاريف القدر.. ولكنني اليوم سعيدٌ، وأظنُّه الآن كذلك فقد سامحنىٰ ورضي عني.. ومنحني نظرة الرِّضا التي عشت حياتي كلها أبحث عنها في عينيه.. درت بعينيَّ في وجوه الضيوف.. تذكَّرت وجوهًا قديمة محوتها من ذاكرتي، لم تعد لها قيمة تذكر في نفسي، تطلَّعت للباشا وقد وقف بجوار حفيدته سعيدًا راضيًا..

فابتسمت وأنا أتذكَّر كيف كنت أراه ضخمًا عملاقًا عليه مهابة أخافتني كثيرًا، والآن أراه عجوزًا ضعيفًا، عيناي تدوران تبحث عن طليقتي حتىٰ وقعت عليها.. علىٰ وجهها سعادةٌ غامرةٌ تتحرَّك وسط النَّاس بأنثويةٍ باديةٍ برغم آثار السنين البادية علىٰ وجهها وجسدها.. فاعترت جسدي هزةٌ قديمةٌ أعرفها حين كنت أتطلع إليها في زمن سكرة الجسد ونشوته لا أدري كيف جاءتني مرةً أخرىٰ.. أهو من أثر فستانها العاري! أم هو الإثم يحتضر في صدري ليصحو للمرَّة الأخيرة قبل أن تموت كل آثاره في قلبي!.

المحطة الأخيرة لعينيَّ.. وقفت عند ابنتي.. رحت أتأمَّلها سعيدًا بها.. التقت عينانا.. فابتسمنا لبعضنا ابتسامة عريضة، فأشارت إليَّ بيدها تحيِّيني، ورفعت يدي كذلك بحركةٍ لم تكن تحيَّة.. ولكنها كانت إشارة وداعٍ.. ثم استدرت بهدوءٍ.. وانصرفت.



مــاء وهـــواء

1

مرت بالتمام والكمال سبع سنواتٍ كاملةٍ هيٰ عمر علاقتي بأمل.. تستطيع أن تسمِّها علاقة حبٍّ.. خطوبة.. مشروع زواج مؤجَّل لموعد لانهائي.. مشروع بدأ جميلا يسابق الأحلام.. ولكن طال طريقه حتىٰ سرق من العمر أحلىٰ سنواته، ومن شبابنا فتوَّته.. كنا نحتفل باليوم الذي تعارفنا فيه كلَّ عام معتبرين أننا ولدنا تلك اللحظة.. وبدأنا نعدُّ عمرنا الحقيقي منذ ذلك اليوم.

كان الاحتفال الأول بعيد ميلاد حبِّنا صاخبًا بهيجًا.. وأتىٰ الثاني مثله تماما ثم بدأت شعلة الحبِّ في قلبي ترتعش كأنَّ أحدًا ينفخ فيها باستمرار ليطفئها.. فتسرع أمل بذكاءٍ فتضمُّ كفيها حولها بحب وحنان لتحميها من الانطفاء، ثم بدأ البريق يخفت في مشاعري، وشعورٌ عارم ببرودةٍ تجتاح رغبتي في الاحتفال بذكرىٰ مولد الحب بيننا.

تتفاوت مشاعرنا بمرور الأيام.. وتتسع مسافة الإحساس بقرب الأمل في الزواج فقد كانت الشروق بكل صفائه وإقباله

وعافيته.. وكنت الغروب بعبوسه وإدباره وتعاسته.. وأصبحت أمل بالنسبة لي مجرَّد جرعةٍ من الحبِّ في حياتي الجافة أتناوله بشكل يومي ليروي احتياجاتي الشعورية فقط.

عيد ميلاد قصتنا السابع لم يعد يذكرني بتلك الذكريات الجميلة التىٰ كنا نردِّدها كلَّ عام.. اللحظة الاستثنائية فىٰ عمرنا.. النظرة الأولىٰ التىٰ توقفت عندها الذاكرة طويلا.. الشعور الرَّائع بهذا الدفء العام الذىٰ ملأ الحياة برغم أننا كنا فىٰ قلب الشتاء مباشرة، الحب الذي خرج بنا فجأةً وبدون أن نشعر من حدود الزَّمان والمكان، كل عام كنا نبحث عن شعور جديدٍ لم نفكر فيه لنتذكر تلك البدايات الجميلة، عاد هذا اليوم لا ليذكرني بأجمل أيام عمرىٰ ولكن ليذكرني بعجزي وفقري.. وبأنني غيرُ قادر علىٰ الزواج من الفتاة التىٰ أحببتها وخطبتها من أهلها.. ثم لم نتحرَّك حتىٰ خطوةً واحدة بعد ذلك.. ما أبشع هذا الإحساس.

كانت الذكريات التي نتداولها كل عام في احتفالنا بقصَّة الحب اليتيمة تمثل لي أنبوب أكسجين يمدني ببعض الفرح، ولكنها لم تغلب أبدا سأمي وحزني الذي يكتسح وجداني.. هذه المرة لم يعد لدي طاقة علىٰ الاستماع لكلمة واحدة عن الحب.

أما هي.. فلو كنا نحتفل بهذا اليوم للمرَّة المائة لكان لديها كل جديدٍ وجميل تقدِّمه لىٰ.. ليس عندها ذرَّة يأس من أننا ستتمم

الزواج فى يوم ما.. مهما طالت الأيام وبعدت.

سبع سنواتٍ عجاف لم ألمسها ولا مرة.. ولم أجرؤ على الرغم من عطشي الشديد.. واحتياجي الرهيب للاقتراب من كيانها.. أما هي فلم يكن لديها استعداد لأن تفعل شيئا يغضب الله حتى بالكلام.. ولو شعرت بتلميح منى.. تغضب.. ولا يرد غضبها شيء إلا اعتذار صادق وحارٌّ بأنني لم أكن أقصد.. أحيانا أضحك بمرارة من طبيعة علاقتنا المعلقة باللاشيئ.

ثم.. أقبلت علىّ بوجهها الطيب الطموح.. الواثق.. مبتسمة ابتسامتها العذبة الحبيبة.. التى تحاول بها أن تأسرني دائمًا.. جاءت وسعادة الاحتفال ترفرف في عينيها، ولكن بدا الأمر مختلفًا على وجهي الباسم الذى تقرأه بعناية.. أننى حزين، لم تلتفت لحزني ولكنها بادرتني بكثير من الحكايات عن يومها في محاولة لأن تخرجني من هذه الحالة التي تعرفها.. ولمّا بدا علىّ بعض التجاوب تشجعت فأخرجت لى هدية متواضعة جدا قدمتها لى وكأنها تقدم لى خاتما من الألماس بفرح كبير أغاظني لدرجة احمرَّ لها وجهي فقالت ببرودٍ متجاوزة ضيقي:

-مالك حبيبي؟

فقلت وقد ارتفعت حرارتي:

-لا شيء.

قالت متشبثة بالفرح وقد انزعجت لطريقتي في الرد:

-أرجوك إلا هذا اليوم.. تضايق غدا أو بعد غد.

وجدتني فجأةً أصرخ في وجهها دون وعي:

-ألا تملين أبدا؟ ألا تشعرين بي؟ أليس لديك إحساس بالواقع المرِّ الذي نعيشه؟

كانت الصدمة مدوية كالصَّفعة علىٰ وجهها.. أول مرَّةٍ أصرخ في وجهها هكذا حتَّىٰ أنها وقفت ذاهلة وجسدها يرتعش، ثم دمعت عيناها للحظة ابتلعت فيها ريقها، ولكنها لم تستطع مقاومة تدفق الدموع فبكت، فوجدتني أندفع ناحيتها بشكل عفوي ومفاجئ لأتلقفها في حضني.

2

مرات كثيرةٍ جلست إليها وطلبت منها الانفصال بهدوءٍ وتناقشنا بالعقل والمنطق.. كانت تبدي تجاوبًا كبيرًا معي في جميع تلك الحوارات ولكنها كانت تصدمني بردودها التي تأتي دائما كأننا نتكلم في موضوع آخر.. أما أفعالها فكانت تسير في طريقها كأننا سنتزوج مثلا يوم الخميس القادم.

حين التقيت أمل وجرىٰ علىٰ قلبينا ما يجري لكل المحبين كان أول شعور انتابني أنها سيدة العمر وحبيبة القلب، وامرأتي أنا، خلقها الله لي وحدي.. النموذج المثالي للحبيبة والزوجة، الرقة والحنان والاهتمام، ملأت عواطفي كلها، وداعة وجهها ونظرتها المحبة للحياة كلها أوقعتني في أسرها، أقبلت عليَّ.. واختارت ما أشار به قلبها الذي يصدقها دائمًا كما تقول أن تسير خلف رجل واحدٍ وأن تتخذه حبيبا وتعيش علىٰ حلم كبير أن يصير زوجها، والعمر يمضي بسرعة كطائرة تهوي إلىٰ الأرض.. وتنهار معها قدرتىٰ علىٰ الانتظار، وبتُّ كأني أريد أن أنقذها من الضياع الذي أعيشه، ولكن كان لأمل نظرة أخرىٰ للحياة مختلفة تماما فكلما هويت درجة في سلم اليأس تصعد هي درجات علىٰ سلالم الأمل.. وتكبر قدرتها علىٰ الانتظار وتقوي كلما طالت السنون.. حتىٰ أصبحت طريقتها البسيطة في تناول الحياة.. هي هي نفس الطريقة التي تجعل رأسي يغلي من الغيظ.. ومع ذلك لم أجرؤ ولا مرة علىٰ مواجهتها بهذه القسوة التي تعاملت معها في المرَّة الأخيرة.

التقينا لأوَّل مرَّةٍ في مكتب المحاسبة الذي كانت تعمل به.. توظفت فيه وأنا علىٰ مشارف الثلاثين.. بعد رحلة من العناء في الحياة.. فقد عملت منذ تخرجت من كلية التجارة في أعمال كثيرةٍ

ومتنوعة، وكل ما اكتسبته من مال ابتلعه مرض والدي العضال، ثم مات وترك لى أمي وأخي الأصغر وميراثا ثقيلا من الديون.. عملنا جميعا ومازلنا نعمل على تسديده.. حتى انتهي بي المقام إلي مكتب المحاسبة الذي سبقتني فيه أمل بعامين، حين استقبلتني لأول مرة.. بدت لي ساعتها كقطعة صخر.. فقد قابلتني بوجه جاد وملتزم يغلب على نظرة عينيها نوع من التجهم برغم جمال صافٍ يغلب على تفاصيل وجهها.. هذا الوجه الصارم جعلني أتساءل.. أي بطل يمكن أن يخترق تلك المفاوز الخطرة ليصل إلى قلبها؟

لم تكد تمرُّ ساعة على عملي معها في نفس المكتب إلا وبدت فتاة أخرى.. حين أخذت تعرفني على محيط العمل حولنا.. وتباسطت في الحديث بتلقائيةٍ تغير معها وجهها وأشرق عن ابتسامةٍ جميلةٍ ألقت في قلبي بذور الودِّ.. كأنها تعرفني منذ زمن طويل .. مثَّل لي ذلك في البداية مفاجأةً أربكتني قليلا.. وكلمَّا أحست بارتباكي.. تباسطت أكثر.. ظنًا منها أنني أهاب الموقف، فتقترب دون أن تدري أكثر وأكثر.. وانتهى يوم العمل الأول وقد غزت أملُ قلبي.. فلم تفارق خيالي حتى التقينا في اليوم الثاني.

شيئ غريب حدث لنا لم نستطع تفسيره حتى الآن.. كيف تنجذب لشخص بهذه السرعة الخاطفة لتجد نفسك واقعًا في

أسره؟ سؤال لم نجد له إجابة ولن نجد، فقد تجاوبت مشاعرنا بسرعة وخضعت لذلك الحنين الأبدي بين الروح وتوأمها حين يلتقيان.. الفارق الوحيد بيني وبين أمل كان في السرعة.. نعم هي احتلت كل المساحات بداخلي، ولكني وبحكم وضعي المادي تردَّدت في الإفصاح عما بداخلي.. أمل اقتربت أسرعَ واهتمت أكثرَ بمجرَّد أن التقطت من عينىٰ حديث الحبِّ الأوَّل.. بينما كنت متردِّدا متعثرًا.. أفكر في الحب بسلطانه الذي احتلني دون سابق إنذار.. كانت هي تقتحم السدود والأبواب لأجدها أمامي بكل بساطتها وتلقائيتها في التعامل مع الحياة.. لتقول لي أنني ذلك الرجل الذي ظلت طول عمرها تحلم به.. هكذا بدون تمهيد ولا مقدمات.

كانت الشرارة الأولىٰ تعلن مولد قصَّة حبٍّ جديدةٍ فىٰ تاريخ المحبِّين.. وكبرت الآمال وعشنا أرقَّ وأجمل وأطهر قصَّة حبٍّ.. وبالرغم من هذا الحبِّ الكبير فلم يهدأ تردُّدي وخوفي من المستقبل حتىٰ جلست معها وصارحتها بكل مخاوفي ومشاكلي وقلت لها ربما تأتيك فرصة أفضل.. ابتسمت بصفاءٍ رائع وهمست لي بعاطفةٍ فيَّاضةٍ أنها عاشت عمرها تنتظر الرَّجل الذي يهزُّ مشاعرها بعنف.. وأنها رفضت الكثير لهذا السبب ووقفت ضد أهلها وانحازت لقلبها حتىٰ يئسوا منها.. وأن لديها استعدادٌ

كاملٌ لأن تقضي بقية عمرها بدون زواج لو لم تجده.. هذا ما عاهدت نفسها.

أمل تنتمي لأسرةٍ فقيرةٍ ومكافحة مثلي.. استقبلوني بترحابٍ كبير كأنني أغنىٰ رجل في العالم..سعادةٌ غامرة ظللت عيون الجميع ونحن نقرأ الفاتحة.. لم يسألوا حتىٰ متىٰ سنلبس الدبلتين ولم يناقشوا تفاصيل كثيرةً في زواجنا.. تركوا الأمر كله لابنتهم كأنها أصبحت زوجتي منذ تلك اللحظة، يثقون فيها جدا.. حتىٰ لتظن أنهم لا يأبهون لها.. ومع ذلك كانت أسرتهم مترابطة، وتسود بينهم مودة غالبة، يحبُّون البساطة، الرضا يملأ قلوبهم ويضحكون علىٰ أتفه الأشياء كأنهم يخرجون للدنيا ألسنتهم.. وكانت أمل وللحق يقال راهبة في محراب الثقة التي أولتها أسرتها لها لدرجة القهر.

أمي كانت سعيدة جدا.. وأخي في المقابل مشفق عليّ جدا.. ولكن علىٰ كل حال سرق الجميع من الزمن سعادة.. وضحكة.. وزغرودة جلجلت المكان بالفرح.

ومرت الأيام.. وتحوَّلت بتلقائيةٍ لشهور، وسلمتها لسنواتٍ ، ولم نتقدم سوىٰ خطواتٍ بطيئةٍ نحو شيئ ما قويٍّ نبني عليه زواجنا في مستقبل قريب، هي فقط تدخر وتدخل جمعيات وتشتري ما يلزم العروس بالتقسيط، وأنا أساهم في سداد الديون

وأساعد في دخل البيت وأمنح أملَ القليل من المال، والقليل هذا كان يسعدها كأني أعطيها آلاف الجنيهات كل شهر، والغريب أنني كل فترة أجدها قد اشترت لي بذلة جديدة.. أو حذاءً.. أو غير ذلك من الملابس والتي كانت ترىٰ أنها مهمة وضرورية لمظهري العام، امرأة بكل المقاييس غريبة ونادرة، تأملتها كثيرا، شيئ ما فيها يحيرني.. كيف يُكتنز كل هذا الطموح بداخلها وهي تسير في هذه الصحراء الجرداء الشاسعة؟ كيف تؤمن إلىٰ هذا الحدِّ أن فرصة ما ستختزل كل صبر السنين وتلقينا في واحةٍ غناءَ ننهل منها ونرتوي!

أما الحبُّ فهو كائن طماع وأناني.. لا يشبع أبدًا، كلما منحته طلب المزيد، وأمل أعطتني الحب والحنان، واقتربت كثيرًا وهي لا تدري من المنطقة المحرَّمة.. حتىٰ ظننت من قربها الحميم أنها تشتهي مثلي أن تنهل ولو قليلا من نبع الحبِّ المواتي لنا نتصبر به علىٰ الحرمان.. فملت عليها بلهفة محب فغضبت، هكذا وبدون مقدمات، ورأيت وجهها المتجهم الذي قابلتني به أول مرة يطل عليّ من جديد وعقدت محاكمة عاجلة وبدون أن تسمع دفاعي حكمت عليّ بوضع قواعدَ صارمةٍ لعلاقتنا، أهمها ألا أقترب مما حرمه الله إلا في الحلال.. واستمعت لحكمها بقليل من الاندهاش مخلوطًا بحزن جاف كأوراق شجر الخريف معلق

بوهن علىٰ فروع الأشجار يوشك أن تذروه الرياح.. المسافة بينها وبين ربيع الأمل شتاء طويل وبارد.. فأومأت برأسي موافقا إياها وانصرفت بدون حتىٰ أن ألقي السلام.

يأكلني الحرمان قطعة قطعة ويركض شبابي نحو الموت، وأنا أتعامل مع امرأةٍ أحبُّها.. لا هي زوجتي فأرتوي منها، ولا تريد أن تتركنيٰ وتبتعد عني فأرتاح من عذابي.. وأملُ لم تكن تأبه لشيءٍ من ذلك سوىٰ أننا معًا.. كيف تسيطر بهذه القوة علىٰ مشاعرها وأحاسيسها تجاهي؟ لست أدري.

مرت الأيام ومشاعري المتوهجة تتجه نحو الذبول أما هي فقد كانت الزيت الذىٰ يملأ مصباحي بالحب والاهتمام في كل مرة تشعر بالضوء فيه يخبو، لا أنكر أنىٰ أحببتها وتعلقت بها.. ولكن مرض الانتظار ملأ قلبي بالملل، وما بين طبيعتي وطبيعتها زاد علىٰ سأمي الغيظ من طريقة تعاملها في الحياة، حتىٰ كان ذلك الموقف العصيب الذي منحني حضنها.

حين ضممتها.. حدثت لي نشوة عاجلة وعارمة من طراوة جسدها، وحلاوة الأرض الفضاء البكر التي تتعطش لمن يحرثها، فضممتها أكثر وأكثر، وكأنها استكانت لحضني، ونسيت في لحظةٍ غائمةٍ بالرَّغبة كل القواعد التي وضعتها، فاسترخت بين ذراعي فتجمعت بتلقائية سحب كثيفة تنذر بأمطار غزيرة، وقبل أن تبتل

الأرض بقطرةٍ واحدةٍ فاجأتني كعادتها، ودفعتني بقسوة وولت هاربة.

3

انقطعت أمل عن العمل بعد هذا الموقف، وخاصمتني.. أخذت أجازة من المكتب، ولم تتصل بي أبدا علىٰ مدار أسبوع كامل، كأننا ارتكبنا إثمًا أو كبيرة من الكبائر.. تجاوب غضبي من ردود أفعالها مع خصامها فلم أتصل أو أسأل عنها.. فقد كان بداخلي حزن وغضب الدنيا كلها، شعرت أنني ميت، نعم مات كل شيء في قلبي و جسدي.. لليلةٍ واحدةٍ فقط، حتىٰ أتت سلوىٰ في الصباح لتحييه.

سلوىٰ؟!

نعم سلوىٰ.. نعمة الدنيا الجميلة التي حطت علىٰ قلبي فجأة هكذا، دفعتني أمل بقسوة من حضنها لتتلقفني سلوىٰ بملء ذراعيها.

لا أحد يندهش.. هذا ما حدث لي بالضبط في اليوم التالي والذي أتىٰ بصباح كئيب.. أطل علينا في المكتب الذي نعمل فيه، الموظفون يتحركون بلزوجةٍ صباحيةٍ معهودة.. يحملون أوراقهم استعدادًا للخروج لتأدية أعمال المكتب في المحاكم أو مصالح

الضَّرائب بكل أنواعها، لا تسمع كلمات كثيرة كأنهم يتحركون نائمين.

دبَّت الحياة فجأةً بوصول صاحب المكتب ومعه رجل كبير صاحب هيئة فخمة ضخمة.. دخلت في أثرهما فتاة كزهرةٍ صباحيةٍ قبَّل خدودها الندىٰ فاحمرَّت واهتزَّت بالفرح، يسترخي شعرها علىٰ كتفيها بهناءٍ بادٍ.. وعلىٰ شفتيها المكتنزتين ابتسامة طرية تملأ الحياة بالحبور، تلك كانت سلوىٰ.. استيقظ الجميع لطلتها، وحلت الابتسامات مكان العبوس والتهمتها عيون الشباب.. وتنهد العواجيز، أما أنا فلم أكن لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء.. التفتُّ للداخلين التفاتة عابرة فالتقت عيناي بعينيها مباشرة في نظرة خاطفة.. لم يفلح هذا الجمال الصباحي المبتسم في خروجي من حالتي النفسية فأشحت بوجهي المكتئب بعيدًا عنها.

بمجرد أن غاب الرجلان والمرأة في مكتب المدير، إلا وسرت همهمات وبدأ الجميع في حالة نشاط مفاجئ وانتشرت الفتاوىٰ حول الزائرة، ثم توقف كل ذلك حين طلب المدير أحد الزملاء.. الذي غاب قليلا ثم خرج ليقول لي: المدير يريدك.

هل مت ودخلت الجنة؟ أستغفر الله العظيم.. هل الدنيا التي

أحياها.. هي هي الدنيا التي وجدتها في مقعد السيارة الوثير؟ أم في هواء التكييف المعطر الذي يسري في خلايا جسدي بالانتعاش والإقبال علىٰ الحياة؟ أم في تلك الأنثىٰ الفاتنة التي تجلس علىٰ مقود القيادة؟

نظرت إلىٰ سلوىٰ.. فالتفتت لي بتجاوب مبتسمة كأنها لاحظت توتري فأرادت أن تحييني وتطمئنني، اختلست عدَّة نظراتٍ لسلوي التي انشغلت بالطريق، ترتدي فستانا صباحيا بلون السماء، به خطوط بيضاء كأنها السحب، تذكرت السحب التي تجمعت بكثافةٍ لتروي الأرض البكر وأنا أسرق نظراتٍ نزقة إلىٰ ساقيها البيضاء وركبتها التي انزاح عنها الفستان قليلا من أثر حركتها في القيادة.. هل ساقا أمل بهذه الحلاوة؟ لم أرهما مطلقا.. لم أرَ سوىٰ وجهها وكفيها.. تنهيدة خرجت مني دون أن أدري فالتفتت سلوىٰ مرة أخري مبتسمة ومتسائلة عن تنهيدتي.. فجاوبتها بابتسامة صامتة.

في المصالح الحكومية هناك نوع من المشكلات العويصة لا يحلها إلا صغار الموظفين.. إما بإخفاء بعض الأوراق أو بعض المعلومات عن الموظفين الكبار حتىٰ يأخذوا توقيعهم ثم تسير الأمور بعد ذلك في مسارها الطبيعي.. كان لعائلة سلوىٰ مشكلة كبيرة عندما عُرِضَت بتفاصيلها علىٰ الموظف الكبير تردَّد وخاف

برغم إغراءات محامي العائلة.. وفي زحام المبني العتيق تقابل الصديقان المحامي وصاحب مكتب المحاسبة وعرف منه طبيعة المشكلة فطمأنه قائلا: إن أي موظف لديه في المكتب يمكنه حلها.. ثم كنت الذي اختاره القدر لأحلها عند موظف صغير في الإدارة أعرف كيف أتفاهم معه.. فاستقبلني بحفاوة مغامر مستعد لأي شيء في سبيل رزق وفير يأتيه.

في وقتٍ قياسي بدوت أمام سلوىٰ الفارس المغوار الذي لا يشق له غبارٌ.. وأنني فعلت ما لم يستطع محامي العائلة حله بكل نفوذه.. شعرت من فرحتها الغامرة واقترابها مني لتحييني أنها توشك أن تمنحني قبلة علىٰ خدي.. وفي حركة مفاجئة وضعت في جيبي مبلغًا كبيرا من المال.. فشعرت بضيق شديدٍ وإهانةٍ داخليةٍ من طريقتها وبحركة عكسية أخرجت المال من جيبي ورددته معتذرًا عن عدم قبوله مؤكدًا لها أنني قمت بواجبي، وأنني لا أتقاضىٰ أي مبالغ من الزبائن خارج المكتب، ثم انصرفت تاركا دهشة كبيرة علىٰ وجهها.

أسرعت سلوىٰ تغذ السير خلف خطواتي المتسارعة تنادي عليّ وقد شعرت أنها أخطأت بحقي، ولم تتركني حتىٰ وقفت أمامي ومنعتني من مواصلة السير معتذرة بشدة.. وأمام ابتسامتها الحلوة ابتسمتُ وأنا أشيح بوجهي فقالت:

-هذا ما اعتدناه في كل مكان أن ندفع مقابل أي شيء.

تطلعت لعينيها الجميلة بعمق وقلت:

-أنت معذورة صحيح فهكذا تسير الحياة للأسف.

عدت للجلوس على المقعد الوثير بجوارها وقادت السيارة قليلا ثم توقفت والتفتت إليّ وقالت بتردد:

-سأسألك سؤالا.. ممكن؟

-تفضلي.

-لماذا أنت مختلف هكذا؟!

-مختلف؟!

-نعم مختلف عن الآخرين..الجميع يأخذون مقابل خدمات يؤدونها.. على الأقل أنت أديت خدمة كبيرة.

-صحيح أن المشكلة كبيرة.. ولكن الحكاية كانت تحتاج لموظف صغير وليس المسئول الكبير، فالموظف الصغير لا يدقق كثيرا، خفيف وسريع الحركة، ويقبض، وقد كان.

-كنت مستعدة لأن أدفع أي مبلغ في سبيل حلها.. فما الذي يمنعك؟

-لا أحب هذه الطريقة في المعاملة وأكره أن أكون أسيرا لأحد.. ربما تأتين غدا إلى المكتب لتطلبيني في عمل فأكون حرا

في رفض أو قبول العمل معك.

-وما الذي يجعلك ترفض لي طلبا؟

هززت كتفي وقلت:

-لا أدري.

4

صباح اليوم التالي جاء استثنائيا.. لم تشرق الشمس علىٰ الدنيا كعادتها.. ولكنني أنا من أشرقت.. ولم تمدَّ الكون بخيوط الدِّفء.. ولكن ابتسامتي الصباحية التي عبرت علىٰ كل الوجوه التي قابلتها أمدتها بالحب والتفاؤل.. حتىٰ مكتبنا صاحب الكآبة المعتادة.. والحركة اللزجة للموظفين.. رأيته جميلا.. ربما في لحظة خفت أن يلحظ أحد الموظفين الاختلاف اليومي علىٰ وجهي، وساعتها لن أسلم من ألسنتهم، ولكنني تجاوزت ذلك بسرعًا بروحي المحلقة ولم آبه لأحد.

شيء ما يحدث بيني و بين سلوىٰ.. وينمو بسرعةٍ ولا أستطيع تفسيره، نظرة عينيها التي وقعت علىٰ عيني حين رفضت أخذ المال كانت مفعمة بالدهشة والإعجاب، ثم اختفت الدهشة، وظلت العيون الحلوة المعجبة معلقة كزهرة ياسمين علىٰ خدود الابتسامة التي لم تفارقها أبدًا طول وجودي معها.

ابتسمت سلوىٰ حين قلت لها: لا أدري.. ثم طلبت أو أمرت أن نتناول الغداء سويًا.. لم أرفض ولم أوافق، شيءٌ مبهمٌ قلته حين عرضت.. لم تقف كثيرًا عند إجابتي الغامضة وأخذتني مباشرة إلىٰ مطعم فاخر شاهدته كثيرًا في إعلانات التلفاز، لم أدخله ولا مرة في حياتي ولا فكرت، تركت نفسي لسلوىٰ مستمتعا بجوارها.. حتىٰ أنني قلت لها ببساطة مفاجئة قبل أن يأتينا النادل:

-عليك أن تختارىٰ الطعام فليس لي في هذه الأماكن ولا طعامها، ولا في الشوك ولا السكاكين وأن عليك أن تتحملي كم الفضائح الذي يمكن أن أسببها لك.

ضحكت طويلا ثم قالت:

-تناول طعامك بالطريقة التي تريحك ولا تتكلف فلا أحد هنا يراقب أحد فالجميع هنا مشغولون بشؤنهم الخاصة.

ثم جاء النادل فتناولت القائمة واختارت بسرعة كأنها تعرف ما تريد ثم اقتربت هامسة:

-اخترت طعامي المفضل.. أتمنىٰ أن يعجبك.

ابتسمت لها متجاوبًا:

-بالتأكيد سيعجبني.

كل الوقت الذي أمضيته مع سلوىٰ كان جميلا وحيويا..

مازالت المشاعر المجهولة تنمو بداخلي وتستطيل وتكبر أكبر مما أحتمل.. تحدثت سلوىٰ كثيرًا كأنها عطشىٰ للكلام، واستمعت لها بكل إنصاتٍ واهتمام.. والوقت يمضي بسرعةٍ كبيرةٍ حتىٰ مالت الشمس قليلا ناحية الغروب.. فنظرت إليّ متنهدة وقالت:

-هكذا الوقت الجميل يمضي بسرعة.. أليس كذلك؟

انتبهت بعد لحظة علىٰ سؤالها فقد كنت غارقا في كامل وجهها فقلت مضطربا:

-هه؟

فضحكت.. وضحكت.

في المساء.. جاءني صوتها عبر الهاتف.. مسَّ ليل الحياة بالبهجة، فأضاءها بالفرح، ما هذا السحر في صوتها؟ تحدثنا كثيرًا، وضحكنا، وصمتنا كذلك في كل مرَّة يدخل الكلام في شوارع الدفء.

طول المكالمة لم أستطع أن أمنع أسئلة كثيرة تتردَّد بداخلي لا أعرف كيف أجيب عليها.. هل تبادلني سلوي المشاعر الطاغية التي تجتاحني؟ هذا القرب الذي تمارسه ما تفسيره؟ هل هو الوهم يسيطر علىٰ مشاعري لهذه الدرجة أن امرأة مثل سلوىٰ

تنظر إلىٰ أنا؟ بالتأكيد إنه الوهم.. إذا كنت سمحت لمشاعري أن تسعد بلحظات قربها فلا يجب أن ينساق تفكيري إلىٰ تصور أبعد من ذلك.

أرتشف قهوتي الصباحية في المكتب صامتا.. تغزوني مشاعر الرِّضا، منتظرا اتصالها الهاتفي الذي وعدتني به لأمر هام، غارقا في أحداث أمس، لم يقطع تفكيرىٰ سوىٰ أحد الموظفين في المكتب حين قال:

-يبدو أن الزبونة أكلت عقلك.

ابتسمت متجاوبًا مع مداعبته وقلت:

-هذه تأكل عقل بلد.

فقال جادًّا:

-لا تنس نفسك أين هي وأين أنت؟ هذه ولا في الأحلام.

الأحلام؟

حتىٰ الأحلام محرَّمة.. إلا هذه لن أحرم نفسي منها فهي سلوتي الوحيدة.. التي تجعلني أواصل الحياة.. واصلت الابتسام قائلا له:

-نعم.. ولا في الأحلام.

وقبل أن يواصل المحاضرة عن أدب الأحلام رنَّ جرس

الهاتف فرفعت السماعة بسرعة لأقطع حديثه.. لحظة من الصمت رانت عليّ.. حين سرىٰ صوتها علىٰ الجانب الآخر من الهاتف كالنغم.. انتبهت فابتسمت وصديقي ينظر إليّ باهتمام ثم هز رأسه وانصرف.. قائلا:

-عليه العوض.

في نفس المقعد الوثير جلست بجانبها.. اليوم كانت ترتدي بنطلون جينز وقميص أبيض الجو العام جو عمل ، سألتها عن سبب المقابلة.. قالت:

-دعنا نتحدث بعد أن تشاهد ما أريدك أن تراه.

فجلست صامتا بجوارها أرقب سيرها الماهر بين السيار ات في زحام القاهرة حتىٰ وصلنا لأول الطريق الصحراوي المتجه للإسكندرية.. فالتفت إليها مداعبا:

-هذه أول حالة خطف لرجل من امرأة.

ضحكت طويلا وقالت:

-أتمنىٰ لو استطعت خطفك.

-لن تستفيدي من اختطافي بشيئ.. إذا طلبت فدية من أهلي سيقولون لك خذيه وأرسلي لنا أنت فدية.

ضحكت هذه المرة أكثر و أكثر.. ثم قالت بشيئ من الجدية:

-أنت إنسان غالٍ جدا ونادر.

-أعتبر هذا الكلام غزلًا؟

نظرت إلىٰ وهزَّت رأسها موافقة.

توقفنا بعد حوالي عشر دقائق من السير أمام بوابة ضخمة لمزرعة كبيرة.. جاء حارس الأمن يجري مهرولا ومرحِّبًا فاتحًا البوابة علىٰ وسعها.. فدخلت سلوىٰ بسرعة كأنها تقتحمها دون أن تلتفت لأحدٍ.. وأخذتني في جولة بالسيارة استمرت قرابة الساعتين.. إلىٰ الضفة الأخرىٰ للحياة.. إلىٰ عالم الأثرياء الذي لا يعرفه أحد.. بدأت بحديقةٍ للبرتقال علىٰ مساحة لا نهائية من الأرض بدت فيها أشجار البرتقال بأوراقها الخضراء في تمام الجمال والعافية تتزين بثمارها الصفراء التي تتدلىٰ كمصابيح لهداية الحيران في ليل الحياة.. لم أستطع أن أداري اندهاشي من جمال وروعة الأشجار وانتظامها في صفوف طويلة علىٰ مد البصر.. قطعت سلوىٰ صمتي المندهش حين بدأت تشرح لي وهي تشير إلىٰ ثمار البرتقال:

-تعرف؟!.. هذه الثمار لاتلمسها يدُ جانٍ.. ولكنها تُجنىٰ وتعبأ بطريقة آلية للتصدير فقط.. غير مسموح لها أن تقع علىٰ الأرض.

بدوت مندهشا وقبل أن أسأل عن الثمار المسكينة التي تسقط علىٰ الأرض أكملت حديثها:

-تلك شروط الشركة التي نصدر لها.

ثم قالت مبتسمة:

-أما الثمار التي تسقط علىٰ الأرض فلا تخاف عليها فهي تذهب للأسواق الكبرىٰ فتباع بأسعارٍ غاليةٍ

فقلت لها مازحا متجاوبا مع ابتسامتها الحلوة:

-طمنتيني.

أكملنا جولتنا فأخذتني إلىٰ مزارع أخرىٰ تغطيها مساحات هائلة، أنواع كثيرة ومتنوعة من المزروعات الخضراء تشترك فيما نعرفه في الاسم فقط أما ما رأيته فهو شيئ مختلف تمامًا.. كلها كذلك بالكامل تزرع وتحصد للتصدير دون أن يدخل فيها أي كيماويات.. أو تعالج بالهرمونات.

ثم أخذتني إلىٰ مزرعةٍ كبيرةٍ لتسمين المواشي.. فيها ما لا يحصىٰ من الأبقار، استقبلنا الطبيب المشرف علىٰ المزرعة بأدب خاضع ورحب بنا.. ثم أخذنا في جولة ليشرح لنا تفاصيل عملهم، عقلي كان لا يفعل شيئا غير الاندهاش، إما أنني في حلم.. أو أنني في عالم آخر غير الذي أحياه.. الجمال والنظام هما

القانون العام الذي يغلف المكان ويحكمه، حتىٰ الأبقار نفسها تقف في انتظام وهدوء ناعس، مدللة بالنظافة والاهتمام.

ختمنا جولتنا في حديقة غناءَ مترعة بأنواع كثيرة ومختلفة من الزهور منتظمة في أحواض مقسمة حسب ألوانها وأصنافها فبدت حين دخلتها للوهلة الأولىٰ كأنها الجنة.. تحيط هذه الأحواض بربوة صغيرة عليها أرجوحة فخمة من الخشب.. أخذت نفسا عميقا من عطور الورد التي سبقتنا بالترحاب فامتلأ كياني بالحب والنشوة والجمال.

سرنا متجاورين ببطء.. نقف أمام أحواض الزهور.. تحضننا نسمات متدفقة تهز الورد فيمنحنا المزيد من العطر والسعادة والقرب، مازلت أستنشق بعمق عطر الحياة والحب.. مسّ كتفها كتفي في لحظة كالنسمة المعطرة العابرة فتفتحت مسامي وتدفقت مشاعري وهز كياني إحساس طاغ بأن سلوىٰ بين ذراعي تهزني أنفاسها كما يغمرني نسيم الحياة المعطر، بدأت أشعر بفقدان السيطرة علىٰ مشاعرىٰ وأن سلوىٰ أقرب إليّ أكثر مما أتصور، وأنني في لحظة ما سأضمها بين ذراعي، غمرتني حيرة وخوف مفاجئ ألا أسيطر علىٰ نفسي فأرتكب حماقة لا أدري عواقبها مع قربها البسيط والحميم مني.

قطعت سلوىٰ ذلك كله وبدت في واد آخر.. حين استوقفتني أمام أحد الأحواض وأخذت تشرح لي عن أنواع الزهور فيه وألوانها وكيف تعد للتصدير.. وأن تصدير الورد يجلب لها أرباحا هائلة ولذلك فهي تعتني به عناية خاصة وتشرف عليه بنفسها وربما تلمس الورد كله بيديها.. وأخذت تتكلم وأنا أنظر لها تارة وللزهور تارة أخرىٰ.. أرقب شفتيها المكتنزتين بالغواية وهما تنثران الحروف كأنها تنثر لؤلؤًا.. ثم أهرب للزهور فأراها تنظر إليّ بمكر كأنها تقول أين تهرب لقد اكتشفت مخبوء قلبك.. ثم أعود لاستدارة خدودها المتوهجة من أثر ملامسة الشمس.. وألتفت لخدود الورد لأقارن بينهما.. وبينما أنا في ذلك وذاك.. تنهَّدتُ تنهيدة كبيرة دون أن أدري.. فتوقفت عن الكلام وكأنها شعرت بمس الحب في عيني فابتسمت وقالت:

-أين ذهبت؟

فانتبهت بعد هنيهة فاقتربت منها وقلت:

-كنت أحسد الورد.. وأقول في نفسي رحم الله قلوب العاشقين في مصر.. ليس لهم من سلوىٰ.

رجعت سلوىٰ خطوة للوراء وهي لاتسيطر علىٰ نفسها من الضحك ثم سارت أمامىٰ تتقافز كالفراشة وهي مصرة علىٰ استكمال الحديث عن الزهور.

إنتهىٰ بنا المطاف في استراحة فخمة وثيرة تناولنا فيها الشاي وأنواعًا من الحلوىٰ.. قالت سلوىٰ:

-تكلمت قليلا منذ أن وصلنا.

-كنت أستمع باهتمام لكل شيئ.

-رائع.. والآن قل لي ما رأيك؟

قلت بتلقائية غير متكلفة:

-هذا شيئ.. لم أره في حياتي.

فقالت بصيغة مباشرة:

-ما رأيك أن تعمل معنا؟

وقبل أن أرد كانت سلوىٰ تقتحم كل أسئلتي وترددي قائلة برجاء:

-أنا في أشد الاحتياج لرجل أمين ومحترم.

-ولكن ما طبيعة العمل الذي تريدين القيام به؟

-مراقب حسابات.

-مراقب؟

-عندي مراجعون كثيرون.. أريد مراقبة لحركة الحسابات لا يلحظها أحد.. تحتاج لشخص ذكي ونشيط يستطيع أن يلمح

الأخطاء المقصودة في الحسابات، فأنا لا أثق تقريبا في كل من حولي، وسوف أعطيك مرتبًا مجزيًا.

ثم تركت الحديث عن الأعمال فجأة وبدأت تجرني لعالمها فحدثتني عن نفسها حديثا طويلا.. وحميميًا.

5

سلوىٰ من عائلة فاحشة الثراء.. الابنة الوحيدة لأرملة.. لها أخ وحيد يعمل طبيبا ويعيش في أمريكا.. مات والدها منذ أربع سنوات تقريبا في حادثة سير شهيرة وترك لهم أعمالا كثيرة كلها ناجحة ومثمرة، جرت تصفية أغلبها لعدم قدرة الأسرة علىٰ متابعتها.. لم يتبق منها إلا المزرعة والتي أصرت سلوىٰ علىٰ الإبقاء عليها.. وواجهت العديد من المشكلات والأطماع واستطاعت بمساعدة محامي العائلة تجاوزها إلىٰ حد كبير، أما أنا فكنت المحاسب الذي وقع اختيارها عليه لسبب عجيب جدًّا.. أنني كنت الرجل الوحيد الذي قابلته لأول مرة فأشاح بوجهه عنها.. فلفت إعراضي عنها انتباهها.. ورغم أنه سبب سطحي من وجهة نظري لأنني ما أشحت زهدًا في جمالها الطاغي.. ولكن كنت في حالة ضيق واكتئابٍ شديدة.. هكذا جرت الأقدار لتبدأ حكايتي مع سلوىٰ.

تكلمت سلوىٰ كثيرًا وأنصتُّ لها باهتمام عميق.. أعجبها وأغراها بفتح قلبها لي علىٰ اتساعه.. كل ما باحت به كان عن حياتها، والمشكلات الكبيرة التي واجهتها، حدثتني عن المطامع التي حامت حولها وأمَّها حتىٰ من أقرب الناس لهم، ورغم الحياة المترفة التي نشأت فيها إلا أن الأزمة غيرت كثيرًا منها، بل واكتشفت بداخلها طاقة كبيرة من العناد في مواجهة أزمات تعصف بالجبال، شيء واحد كان ينقصها وتبحث عنه، رجل تستطيع أن تضع رأسها علىٰ كتفه وتغمض عينيها.

تجاوزت الخامسة والعشرين بقليل، يكتسي وجهها بنضارة العزِّ، بيضاء خالصة البياض.. يخالط وجنتيها حمرة خجلىٰ كأنها من أثر قبلة.. أو فى انتظارها.

سلوىٰ تسكن في السحاب.. رقبتي ستؤلمني جدًّا لو ظللت هكذا رافعًا رأسي إليها.. أما هي.. فنزلت إلىّ.. وأشعرتني باحتياجها الهائل إليّ، حتىٰ الآن سلوىٰ بالنسبة لي مجرَّد حلم جميل لا أجرؤ علىٰ الاقتراب منه سوىٰ في خيالاتي.. فهي جميلة وغنيةً وقريبة جدًّا من قلبي، فقط.. سأعمل عندها بمرتب مجز.. كم؟ لا أعرف، ولم أسأل، خجلت أن أسألها، وأعجبها جدا أنني لم أفعل، يجب علىٰ أن أستوعب وأفهم جيدا وأذكر نفسي دائما بالمسافة الاجتماعية التي بيني وبينها ولا أتجاوزها حتىٰ لو

هبطت من عليائها.. حتىٰ لو رقص قلبي وطرب.. أو فرح أوحزن.. حتىٰ لو مات كمدًا بحبها، وأظن أن ما بيننا لن يتعدىٰ في النهاية مسافة العمل.. وهذا هو الشيء الطبيعي والمنطقي.. ورغم ذلك فكل المسافات التي أذكر نفسي بها دائما.. تحتلها سلوىٰ في غمضة عين حتىٰ أجدها أقرب إلىّ من روحي.. لماذا تفعل ذلك؟

في مساء عودتنا من المزرعة توقعت اتصالها.. ورغم توقعي الكبير فقد خفق قلبي بالفرح المفاجئ لرنين الهاتف، وجاء صوتها كخبر سار يعبر فوق جبال الحزن التي طالما تسلقتها وحيدًا، تحدثنا كثيرا وضحكنا، سلوىٰ تذيب المسافات بيننا بسرعة مذهلة، وأنا سعيد بذلك جدا، كيف لا يفرح صعلوكٌ مثلي باقتراب ملكة.. تخصُّه وحده دون سائر الرجال بحديث ليلي ودود، آه من صمتها حين تصمت، فكلماتها أجرأ مما لا تستطيع قوله.

تلك الليلة عاودت الاتصال مرة أخرىٰ.. ومراتٍ عديدة.. مختلقة أسباب كثيرة للحديث.. كل مرَّة تتساءل:

-نمت؟

فأضحك وأقول بجرأة:

-كيف ينام من يعرف سلوىٰ؟

فيعجبها ذلك وتحثني علىٰ قول المزيد، فأصمت، فتضحك بفرح طفولي، وفي آخر اتصال بيننا لم تسألني عن النوم ولكنها عبرت عن سعادتها وإحساسها الغامر بالأمان والتفاؤل، وتردَّدت كلمات علىٰ شفتيها لم تقلها ولكنني سمعتها.. فخفق قلبي بالخوف.

في مكتبٍ فخم بغرفة رحيبة مكيَّفةٍ وثلاجةٍ عامرةٍ بما تشتهيه من المشروبات وبعض الأطعمة الخفيفة.. جلست علىٰ مقعد جلدي طري ومريح.. وضعت سلوىٰ أمامي علىٰ المكتب كمية كبيرة من الملفات.. وبوجه جاد غير الذي استقبلتني به هذا الصباح جلست تتابع معي العمل.

بهدوءٍ وتؤدةٍ قسمت الملفات إلىٰ مجموعاتٍ منفصلةٍ بحسب نوع الحسابات.. وبدأت في مراجعتها بدقةٍ كبيرةٍ.. لم تفارقني سلوىٰ ولا لحظة ولكنها كذلك لم تتحدث معي.. كانت تتحرك بهدوء الفراشات وهي تعدُّ الشاي أو القهوة.. وانهمكت تمامًا في العمل حتىٰ أفقت علىٰ صوتها يدعوني للغداء الذي أتىٰ جاهزا من أحد المطاعم الشهيرة.

كانت أمامي كل حسابات الشركة من بعد وفاة والدها..

وبدأت في الإمساك ببعض الخيوط والتي وضعت يدي علىٰ بعض المخالفات الصغيرة والتي قادتني بخبرة إلىٰ مخالفات أكبر.. أخذت أشرح لها كيف تكون المخالفات البسيطة هي البوابة التي نتداري فيها لنخفي مخالفات أكبر.. كأنها قنابل صوت لا أثر لها إلا جذب الانتباه عما نريد أن نفعله.. كنت أستفيض في الشرح كأنىٰ أعلمها وألفت النظر جيدا إلىٰ أسرار في الحسابات ربما تخفىٰ علىٰ خبير، كانت تستمع باهتمام كبير ثم وضعت بين يديها مخالفات كبيرة لأحد الأشخاص استولىٰ فيها علىٰ مبالغ طائلة.. بدا علىٰ وجهها الاهتمام الشديد.. ثم أغمضت عينيها وهزت رأسها في أسىٰ وقالت:

-تعرف أن هذا الرجل من أقرب الناس إلىٰ العائلة.. وكنا نستأمنه علىٰ أشياء كثيرة.

سكتت قليلا كأنها غير مصدقة.. ثم قالت متسائلة:

-متأكد من هذا الكلام؟ ألا تحتاج لمراجعته مرة أخرىٰ؟

قلت بثقة:

-نعم متأكد.. مالذي يجعلني أتهم شخصًا لا أعرفه؟ أنا أتعامل مع أرقام وخبرة طويلة في عملي.

هزت رأسها في أسىٰ وقالت:

-تتصور أنني لن أفعل له شيئًا.

قلت متضايقا:

-لماذا؟ ويمكنك إثبات ذلك بسهولة ووضعه في السجن.

قالت بتنهد:

-في العائلات الكبيرة هناك تعقيدات كثيرة لاتسمح بذلك بالبساطة التي تتحدث عنها أو تتصورها.

ثم التفتت إليّ وقالت:

-لك أن تتصور أنني ربما أتركه لفترة يمارس سرقته لي.. حتىٰ لحظة معينة سأوقفه بهدوء وبلا ضجيج.. عرفت لماذا أحتاجك لتكون بجواري؟

ثم أخذت المخالفات بمستنداتها والحزن يكسو وجهها ووضعتها في الخزنة لحين الوقت المناسب لإخراجها.

الصدمة التي فاجأتها جعلتها تتنحي جانبا وتقف في نافذة تطل علىٰ الشارع وتسرح بعينيها في حيرة وحزن.. ثم تسللت بعض الدموع من عينيها.. فاقتربت منها بتردد.. معتذرا محاولا التخفيف عنها.. فالتفتت إليّ باكية وارتمت بتلقائية في حضني.

كل توقعاتي بشأن تصرفات سلوىٰ غير صحيحةٍ.. فلم أتوقع أن تدخل بين ذراعي هكذا أبدًا.. ولم أتوقع كذلك ردَّ فعلها..

فقد ابتسمت بعدها بلحظات وهي تمسح دموعها وقالت:

-تتصور.. لم يحضني أحد منذ سنوات طويلة.. ويحوطني بذراعيه بكل هذا الحنان.. شكرا لك.

وقفت كالأبله لا أعرف كيف أجيب.. وواصلت حديثها بتلقائية كأنه لم يحدث شيئ:

-هيا ننصرف فقد تعبت جدا اليوم وأريدك أن ترتاح.

وفي السيارة واصلت صمتي وشرودي بينما أدارت كاسيت السيارة علىٰ موسيقىٰ هادئة.

سرىٰ صوتها في المساء سعيدًا كعادته.. وفرحت به بالرغم من عدم رغبتي في الحديث كثيرا هذه الليلة.. فقد كنت أريد الاختلاء بنفسي واستعادة الثواني القليلة التي قضيتها وسلوىٰ بين ذراعي، حزينة، دافئة، ثم يعقب الحضن حلم آخر يدغدغ مشاعري، ويأخذني إلىٰ اللامنتهىٰ.

6

أسبوع كامل مر في العمل مع سلوىٰ.. لا نفترق إلا في المساء، وفي الليل نواصل الحديث الجميل، والصمت الأجمل، أصبحت سلوىٰ تتعامل معي كأننا ملكنا بعضنا البعض.. وكأن اعترافا بالحب المتبادل جرىٰ بيننا.. هي تشعر بالتأكيد بحجم الفارق

بيننا.. فتتعامل معي بذكاءٍ وحرص شديدٍ، حتىٰ المكافأة المالية الكبيرة التي أعطتها لي وضعتها بدرج مكتبي داخل مظروف معطر وتركت بداخله ورقة مكتوب فيها.. (**هذه مكافأة لا ترقىٰ أبدا للمجهود الذي بذلته معي في الأيام الماضية**).. المبلغ المالي من ضخامته بالنسبة لي تركته في المكتب عدة أيام مخافة أن تكون قد أخطأت.. حتىٰ لاحظت ذلك ولكنها لم تعلق إلا في الهاتف حين قالت ضاحكة:

-هل ستدخر فلوسك في درج مكتب العمل.

وفهمت إشارتها فأخذته في اليوم التالي.. وأغرقت كل من حولي في البيت بالفرح حتىٰ لم يتبق منه شيء في آخر اليوم.

واستدار الأسبوع وقد اقتربت روحينا واقترنت ولم يبق لنا مزيد من الصبر نتحمله.. سوىٰ حديث التنهدات.. وجاء يوم الجمعة.. فأصرت علىٰ أن نقضيه في المزرعة.. فاضطربت روحي وغلبني الخوف من الاقتراب أكثر فحاولت الهروب منها.. فلم تفلح محاولاتي في الاعتذار.

قابلتها في الصباح جميلة كعادتها متدفقة الأنوثة.. كل شيء فيها يناديني، كانت ترتدي عباءة طويلة وإيشاربًا من الحرير الوردي أحاط بوجهها، فنظرت إليها بإعجاب وقلت مازحا:

-هل ارتديت الحجاب؟

ضحكت وقالت:

-ادع لي بالهداية.. اليوم الجمعة وسنصلي في المزرعة ونقضي اليوم هناك.

تناولنا الغداء وأمضينا وقتا طويلا في الحديث عن الأعمال والأرقام.. وبرغم هذا الحديث الجاف كنت أشعر أن نداءً ما خفيًّ يتدفق من نظرات سابحة في بحر من الرغبة بلا شواطئ يهز أضلعي هزا، نداء عينيها يملأني بالاندفاع والخوف..

انتهىٰ بنا المطاف قبل الغروب إلىٰ حديقة الزهور.. ثم إلىٰ الربوة.. ثم إلىٰ الأرجوحة الوثيرة.. جلسنا بتلقائية متجاورين قريبين حتىٰ الملامسة.. أحاطتنا الزهور وجرت نسمات الهواء فاهتزت لها أعناق الزهور طربا كأنها ترقص لنا.. أو تدارينا.

جلست سلوي إلىٰ جواري ملتصقة بي ووضعت بتلقائية ذراعها فوق ذراعي وشبكت أصابع يدها بأصابعي ووضعت رأسها علىٰ كتفي وأغمضت عينيها مستسلمة لي.

أعجبني قربها وملامستها لي.. فاستسلمت أنا كذلك لقربها.. برغم خوفي وعجزي وترددي.. وقهر الأيام الساكن في ضلوعي.. فقد طردت ذلك كله في هذه اللحظة الساحرة.. وتركت

الأرجوحة تأخذنا، فترتفع بنا وتنخفض.. بهدوء جميل، كما تركت لمشاعري العنان تحلم بما تريد.. كأنني أعرف ماسيحدث بعد لحظات، أو لا أعرف، وظللنا علىٰ هذا الدفء نرقب الشمس بلهفةٍ حتىٰ تدلت للمغيب، فالتقت عيوننا والوهج الأخير لحمرة الشفق يلون ارتعاشة الشوق علىٰ وجهينا.. اقتربنا أكثر.. لامست بأصابعها المرتعشة خدي تتحسسه حتىٰ امتلأ بكفها.. كأنها تجذبه إليها وهي تنظر إليّ بلهفة وانكسار وعلىٰ شفتيها ارتعاشة مجنونة بالحب ثم دنت أكثر.. تحرك فجأة الهواء بالنسيم متسارعا فتحرك له الورد ناثرا عبيره الصاخب.. فلم أعد أميز بين عبير أنفاسها الملهوف وبين روح الورد التي سرت في جسدينا فأحالته لكرة كبيرة من نار الشوق تتدفق بالنزق والجنون.. ولم ندر شيئا بعد ذلك فقد غبنا عن الدنيا طويلا حين قطفنا من الزمن أحلىٰ ثمرة من شفاه الحب.

أحاطتني سلوىٰ منذ تلك اللحظة من جميع الجهات، كأن القبلات التي تبادلناها هي التوقيع الرسمي علىٰ عقد الحب الأبدي فأغرقتني بحبها، واهتمامها، وقالت لي في الليل.. أنها اتفقت مع صاحب المكتب الذي أعمل فيه علىٰ إنهاء ارتباطي بالعمل معه تمامًا. عليّ فقط أن أذهب في الصباح لأسلم كل متعلقات العمل التي معي.. وبعدها سأكون ملكا لها، نعم قالت

ذلك.. بإصرار أعجبني.

كنت منهمكا في ترتيب الملفات.. وكتابة تقرير مفصَّل عنها لصاحب العمل.. حين دخلت أمل فجأةً.. شيءٌ ما حدث في الكون.. هل توقف.. ران الصمت، وتحجرت عيناي، وابتسمت عيناها، ارتبكت، وقفت، تعثرت الكلمات علىٰ فمي.. تحركت ناحيتها مبتسمًا باضطرابٍ.. في محاولة لأن أخفي وقع المفاجأة.

ابتسامتها الودودة، وطاقة النور التي أطلت من عينيها المتسامحة.. خففت من حدَّة توتري قليلا.. اقتربت هي الأخرىٰ ومدت يدها لأول مرة بالسلام، خفق كياني كله متجاوبا مع قلبي وسلمت عليها وقد غلبني الحنين من لمسها حتىٰ كدت أن أقبل يدها.. ثم أفسحت لها حتىٰ جلست.. فقالت كأنها تهدئ من الموقف العاطفي المشتعل وبابتسامة غاضبة:

-أسبوع كامل لا تسأل عني؟

7

كانت أمي مشغولة بفك شلة من الصوف تداخلت خيوطها بشكل معقد.. فاقتربت منها والحيرة تعلو وجهي وتنحنحت.. فالتفتت إلىٰ قائلة مبتسمة بحنان:

-مالك؟

ارتبكت قليلا.. فلم تأبه وعادت للانشغال بالصوف ولكنها عاودت السؤال.. قلت هاربا:

-لماذا تتعبين نفسك هكذا في فكِّ الخيوط الصوف المتداخلة.. قصِّي جزءًا من الخيط.

-قليل من الصَّبر والتفكير وتنحلُّ العقدة.

-أو اشتر شلة صوفٍ أخرىٰ.

-هذا اللون نادرٌ ولا أظن أن أجده مرَّة أخرىٰ.. ألا تقل لي مالك؟

-أبدًا.. أبدًا.. مشغول قليلا.

وقبل أن تحاصرني بالأسئلة قمت وانصرفت مسرعًا.

سرت في الشوارع طويلا بغير هدىٰ.. وعقلي متوقف تماما عن التفكير.. أغرق في تأمل الناس بمشاعر جامدة.. كأنني أخاف أن أفكر، أو أن يقودني التفكير إلىٰ الانتحار.. لماذا تتعقد الحياة هكذا؟ يجب علىَّ التفكير في الأمر.. لا يجب أن أترك الحيرة تفتك بي، لابد من وجود حلٍّ ما، ما حدث اليوم فوق قدرتي علىٰ التفكير تمامًا.. تشابكت حياتي بالكامل.

عادت أمل بعد غياب بمفاجأة من العيار الثقيل.. جلست أمامي وقالت هامسة:

-ما رأيك أن نتزوج الأسبوع القادم؟

ظلت ملامحي جامدة لم تتحرك بخلجةٍ واحدةٍ كأنني لم أسمع شيئا.. فواصلت:

-هل تظنني أمزح؟

ثم مدَّت يدها بداخل حقيبتها وأخرجت ورقة بطريقة ساحر يدهش الجمهور بمفاجأته علىٰ المسرح وقالت بمرح ظاهر:

-هذا عقد عمل في السعودية بنفس مهنتك محاسب.. المرتب ليس كبيرًا ولكن علىٰ الأقل أستطيع أن ألحق بك بعد فترة.. ونبدأ معا رحلة كفاح كما تعودنا دائما.

مازال الصمت يغلبني دون رد فعل ظاهر.. فأكملت:

-أعرف أنك تتعذب معي.. وأشعر باحتياجك.. وهو نفس شعوري بل ربما يزيد عنك.

غلبها الحياء فصمتت قليلا ثم غيرت الموضوع:

-لقد دفعت في هذا العقد كل ما ادخرناه.

تكلمت لأول مرَّة:

-هكذا دون استشارتي؟

-أرجوك.. لا تفسد فرحتي.. هذا هو الحلُّ الأمثل المتاح لزواجنا، وقد بحثنا طويلا عن فرصة للسفر من قبل، ما رأيك

يمكننا إعداد حفل بسيط، ونتزوج في أي مكان في البيت عندكم أو عندنا لن يمانع أحد حتىٰ تسافر خلال شهر.. ثم ألحق بك.

هل جاءت أمل في التوقيت الخطأ؟ هل ما تقترحه سيكون بهذه السهولة؟ هل عليّ في عامي السابع والثلاثين أن أبدأ في نحت نفق جديدٍ في الحياة لعلَّي أجد في آخره نقطة الضوء التي طالما بحثت عنها دون جدوىٰ.. غلبني صمت قاتل حينها.. ثم قلت لها لأخرج من الموقف:

-دعيني أفكر.

قالت بشيء من الحدة والرجاء:

-فيم تفكر!؟ واتتنا اللحظة التي ننتظرها لنتزوج.. ألم تكن تتمنىٰ ذلك؟

قلت لها بحدَّةٍ مماثلة وقد ارتجت مشاعري:

-قلت دعيني أفكر.

فغلبتها الدموع فمسحتها سريعا بيديها وقالت:

-سأعد نفسي للعرس الأسبوع القادم.. وسأقيم فرحا وأوجِّه الدعوات للأهل والأحباب.. وافعل ما تريده.

خرجت أمل غاضبة ولم ترد علىٰ ندائي الذي توقف حين سمعت جرس الهاتف.. كانت سلوىٰ تستعجلني.

استقبلتنىٰ سلوىٰ بدفءٍ غامر ومنحتني قبلتين علىٰ خدي فرحة سعيدة بعملي معها.. اندهشت قليلا لعدم تجاوبي.. ولكنها كالعادة تجاوزت ذلك وأخرجت لي مفتاح سيارة وقالت:

-قبل أن ترفض أو توافق هذه سيارة خاصة بالشركة.. نعطيها لبعض موظفينا.

فقلت والضيق يملأ وجهي من كل شيئ في الحياة:

-وفيم أستخدمها؟

كل الإجابات لديها جاهزة علي أي سؤال:

-ستحتاجها كثيرا في الذهاب للمزرعة، أو لقضاء الأعمال في البنوك والشركات التي نتعامل معها، والسيارة من المظاهر المهمة للشركة وموظفيها.

وقبل أن أعترض خفضت صوتها بإغراءٍ جميل مبتسم:

-وحين أريد أن أراك في أي وقت.

باغتها بسؤال لم أعده:

-لماذا تفعلين كل هذا معي أنا بالذات؟

-لأنك الإنسان الوحيد الذي دخل حياتي وشعرت برجولته.. كل الذين يطوفون حولي أشباه رجال، أنت الرجل الوحيد الذي أحببته، ومستعدة لأن أمنحه عمري كله، الرجل الوحيد الذي أخاف منه.

-تخافين مني؟ أنا؟!

-تصور؟! أخاف أن أجرحك، أتحسَّس كلماتي معك.. أشعر أنك حين تغضب سيكون غضبك عاصفًا.. لم أشعر بهذا مع رجل قبلك أبدًا، كلهم يخافون مني ويتمنون رضاي، أغبياء، لا يفهمونني.. تصوَّر أحيانا أتمنىٰ أن أراك غاضبا لتمنحنىٰ مساحة هائلة من اللجوء إليك.

ما هذا الجنون؟ أنا الفقير الذي لا يملك شيئا أقوىٰ من هذه الثرية التي يتحرك حولها الجميع بإشارة من عينيها.. ما هذه الحياة التي لا أستطيع أن أفهمها؟ سلوىٰ تقف أمامي بخضوع ورجاءٍ وتتمنىٰ أن أرضىٰ.. ولديها الاستعداد الكامل لمنحي أي شيئ فقط أمنحها في المقابل الأمان والثقة.

عادت للحديث عن العمل كأنها تغلق كل مسارات اعتراضاتي وناولتني عقد العمل مع الشركة:

-هذا عقد العمل بينك وبين الشركة، فيه كل التفاصيل، وهذا العقد ليس نهائيًا لو لك إضافة أو اعتراض.

لم أعد أسمع حديثها فقد وقعت عيني بعد بحثٍ سريع عن قيمة الراتب والذي فوجئت بأنه كبير بدرجة ملحوظة.. فرفعت وجهي لأتكلم عن الراتب فسبقتني كأنها تقرأ أفكاري.. وقالت:

-الرقم المكتوب في العقد هو المرتب الطبيعي الموجود في أغلب عقود الموظفين.. لو رأيته أقل مما يجب يمكننا أن نناقش الزيادة.. أنت تستحق أكثر من ذلك بكثير.

إنعقد لساني.. وكلمتها.. لو رأيته أقل، تضرب في عقلي كالمطرقة.. أين كنت يا سلوىٰ وأنا أذوب مع أمل في الحياة حتىٰ نحصل علىٰ عُشر هذا المبلغ؟ حتىٰ عقد العمل الذي أتت به فرحة وسعيدة كحل لمشكلتنا لا يساوي ربع هذا الراتب مع الغربة.. لماذا ظهرت في هذا الوقت بالذات؟ وماذا عليّ أن أفعل؟ إلىٰ أين أذهب يا ربي؟

استأذنت سلوىٰ في الانصراف بدون سبب ظاهر وتركتها كذلك والدهشة معقودة علىٰ وجهها من صمتىٰ الغريب..
وسرت هائما في الشوارع لساعاتٍ طويلةٍ لا أدري إلىٰ أين أريد أن أصل حتىٰ عدت في المساء منهكا إلىٰ البيت والدنيا كما هي ضيقة في وجهي.. وكلُّ الأبواب أمام عيني موصدة.

وجدت أمي في مكانها الذي تركتها فيه وقد استطاعت فكَّ عقدة الصُّوف وراحت تكمل عملها بهمةٍ ونشاطٍ.. ابتسمت كطفلة بريئة حين رأتني وقالت:

-لقد حللت العُقَد بقليل من الصبر.

ابتسمت لها وقبلت يدها فقالت:

-ابن حلال.. أنتظرك لنشرب قهوتنا سويا.. كل شيئ جاهز عليك إعدادها فقط.

جلست بجوارها   أشرب القهوة في صمت، برغم أن أمي منهمكة في غزل الصوف إلا أنني كنت أشعر بها ترقب أن أتكلم.. ولما طال صمتي قالت مباشرة :

-ماذا ستفعل مع أمل؟

-حدثتك؟

-نعم زارتني قبل أن تأتيك ولكنها طلبت أن تزف إليك البشري بنفسها.. أنا سعيدة جدا والفرحة ترقص في قلبي.. أخير ستنفك عقدة زواجكما بعد طول صبر.. أخيرا ستدخل الفرحة قلبي بعد سنوات الحزن.. ألف مبروك يا ولدي.

انهرت فجأة بالبكاء وارتج جسدي كله، فانزعجت بشدة وألقت ما بيدها وأسرعت إلي تضمني إلىٰ صدرها وهي تصرخ باكية مستغيثة بأخي.

8

نهر الدموع الذي ذرفته أراحني كثيرًا.. وأفرغ طاقة لو استمرَّت بداخلي ربما قتلتني، لم يزعجني في الأمر سوىٰ منظر أمي وهي

تجري إلىٰ صارخة باكية، وهي لا تدري ما الذي أصابني فجأة.. كلَّ ما استطاعت أن تستنتجه بعاطفتها الجياشة أن كل هذا البكاء لأنني سأفارقها وأخي بالسفر بعيدًا.. فأخذت تهدئني.. وتخفف عني، ولم تتركنىٰ أبدا حتىٰ ابتسمت لها، وقبلت يديها معتذرًا وتجاوبت معها فيما ذهب إليه تفكيرها.. حتىٰ يهدأ بالها.

الراحة التي خلفها البكاء كانت مؤقتة فلم يتغير شيئ مما أنا فيه من العذاب.. ورغم ذلك استقبلت يومي بشيءٍ من الهدوء النفسي ورحت أتأمل الناس والوجوه في مترو الأنفاق القادم من المرج وحتىٰ وسط البلد حيث يقع المكتب الفاخر الذي أعمل فيه الآن، جلست عاكفا علىٰ عملىٰ حتىٰ أتت سلوىٰ كقطرة ندي.. وددت من طلتها الجميلة علىٰ أن تقبلني.. لم تفعل.. ولكنها قالت بعذوبةٍ معاتبة:

-أين كنت طول الليل!؟ إعترف.. ولماذا كان هاتفك مغلقا؟

هربت بابتسامة من سؤالها بسؤال:

-هل بدأت التحقيقات الصباحية؟

-افتقدتك كثيرًا أمس.. وكنت أودُّ الحديث معك.. يبدو أنك مللت من أحاديثنا الليلية فأغلقت هاتفك.

لو تدرين يا سلوىٰ ما يفعل صوتك وأحاديثك بي في الليل.. ما

قلت هذا الكلام، ولكن القلب منشطرٌ لنصفين، أحاول أن ألملمه، وروحي حيرىٰ أحاول أن أهدِّئها.. ماذا أقول لك غير أن أواصل الابتسام الذي يحيرك.. ومع ذلك تتجاوزينه وتواصلين حديثك ومفاجآتك:

-اليوم أنت مدعوٌ للعشاء معنا في الفيلا.. ماما تريد أن تراك وتتعرف عليك.

-لماذا؟ أنا مجرد موظف عندكم.. لماذا تريد أن تتعرف عليَّ؟

قالت بغضب:

-أولا أنت لست مجرَّد موظف عندنا.. أنت أهم شخصية في حياتي كلها، كلمتها عنك كثيرًا.. وأعجبت بك وتريد أن تتعرف عليك.. وحددت موعدًا لك اليوم علىٰ العشاء.

-ليس من المنطقي أن أكون في خلال أيام قليلة أهم شخصية في حياتك هكذا.

شعرت سلوىٰ بشيء من الحدَّة في كلامي.. ولكنها واصلت بإصرار واقتراب:

-نعم أهم شخصية في حياتي.. وأحبُّ إلي من روحي وقلبي.. وإياك أن تكسر قلبي بعدما تعلق بك.. كانت الحياة قبلك لا طعم

لها، الآن صار لحياتي قيمة بوجودك فيها، تقول هذا الكلام بعد أن ملأني هذا الشعور المطلق بوجود رجل يمنحني الأمان والأمل في الحياة والحبِّ، بعدما شعرت بقربك وحبك وحنانك واحتوائك لي.. بعدما تذوقت معك لأول مرة في حياتي أروع معنىٰ للحب ونحن في المزرعة.. أم أنك نسيت؟

سكتت سلوىٰ وعيناها تتطلعان إليّ بنداءٍ مسَّ جسدي كله فاقتربت منها بشوق كبير وعلىٰ عيني اعتذارٌ وفتحت ذراعي لها فهوت علىٰ صدري كطفلة تأوي إلىٰ أمان حياتها.. ناسيا كل شيئ في حضنها.

لست أدري لماذا أصبحت أشعر أنني أسير في الحياة كالمنوَّم.. لم أعد أستطيع أن أفكر في شيئ.. لا أعرف إلىٰ أين ستسير بي الحياة في الأيام القادمة.. صدامٌ وشيكٌ بالتأكيد سيقع.. صدامٌ مزلزلٌ.. ولكنه بين من ومن؟ وماذا سيترتب عليه؟ لا أدري.

بعد انتهاء وقت العمل وانصرافي.. وجدتني بتلقائيةٍ أتصل بأمل، شعرت بافتقادها جدًّا، وكأنني لم أكن مع سلوىٰ أبثها مشاعري وأعتذر لها وهي في حضني.. أشعر بفراغ كبير في رأسي.

-أمل

-نعم؟

-وحشتيني

تصالحنا.. علىٰ أي أساس؟ لا أدري.. ولكنني افتقدتها.. فكلمتها، وتصالحنا بسرعةٍ فائقةٍ كعادتنا.. نبرة الحزن لم تختف من صوتها.. وذهبت إليها في منزلها.

حدثتها عن عملي الجديد بدون الدخول في تفاصيل كثيرة.. حتىٰ الراتب لم أستطع أن أقول لها قيمته كاملة مخافة أن ترتاب.. ولكنها اقتنعت أننا يمكن أن نؤجل سفرنا قليلا.. ولكنها أصرت بطريقة غريبة علىٰ إتمام الزواج بأي طريقة خلال الأسبوع القادم وأكدت أنها تعد نفسها لذلك.. وسكت.

في الفيلا الفاخرة استقبلتني والدة سلوىٰ بترحاب كبير.. جميلة هي الأخرىٰ برغم أنها تجاوزت الخمسين.. حدثتني بعد أن جلسنا بود كأنها تعرفني منذ زمن طويل وطال بنا الحديث وتشعب وسألتني عن أهلي وعائلتي.. وحدثتني عن سلوىٰ وقلقها عليها.. ودارت السهرة بتباسط حميم شعرت معه براحة وهدوء نفسي.. ثم استأذنت قبل وضع العشاء وتركتني وسلوىٰ لنكمل السهرة.

هذه الليلة أغلقت هاتفي.. لم أفكر في شيئ، ونمت بعمق شديد خالي البال حتىٰ الصباح.. مستعد لاستقبال مفاجآت

الحياة باستسلام غريب.. ابتسمت لنفسي في المترو، وقلت ماذا سيحمل لي اليوم؟ ثم قلت لها ما رأيك أن نلعب سويا لعبة التوقعات؟

وجاءت سلوىٰ.. بوجهها الصبوح.. كأن الشمس تشرق أولًا علىٰ وجهها قبل أن تطلع علىٰ الكون، كنت منهمكا في العمل حين ألقت تحية الصباح وقالت:

-ما الأخبار؟

-أعددت لك برنامجا متكاملا علىٰ الكمبيوتر بحيث يمكنك متابعة الحسابات بسهولة فائقة

-جميل

-واليوم سأعلمك كيف تتعاملين مع البرنامج

-لا أريد أن أعرف شيئا.. طالما أنت موجود، دعني أرتاح من الحسابات.

-أنا مصرٌّ.. يجب أن تعرفي بوضوح حركة أعمالك بدقة وبشكل يومي ووقتما تحتاجين.

-إذا احتجت سأسألك

-وإذا غبت لسبب أو لآخر؟

-وما الذي يجعلك تغيب عني؟

قلت هازئا:

-ربما.. ربما أموت

وهنا انتفضت سلوىٰ كأن مسًّا أصابها ونظرت إليّ بغضب شديد بدد شروق الشمس علىٰ وجهها وقالت:

-لا تذكر هذه الكلمة مرة أخرىٰ.. أنا يهون عليّ كل شيئ ولا يحدث لك ذلك.

ثم بكت.

ابتسمت بداخلي وأنا أضمها لحضني معتذرا.

مسحت دموعها وجلست حزينة صامتة وبدأت أشرح لها طريقة عمل البرنامج.. حتىٰ انتهينا وقد استوعبت أغلب ما قلته لها.. ثم انتحت جانبا تشرب قهوتها، وتركتني حائرًا ماذا أفعل.. فاقتربت منها وجلست بجوارها وقلت لها:

-مازلت غاضبة؟

فالتفتت إليّ وقالت ببساطة تحسد عليها:

-ما رأيك أن نتزوج؟

الفراغ في رأسي يتسع لأبعد مدىٰ.. نفسي كسبت الرهان في لعبة التوقعات بجدارة، كل شيئ عند سلوىٰ سهل.. ولم لا؟ كل العقبات التي يمكنني أن أسوقها لها تتجاوزها بسهولة.. إلا عقبة

واحدة لم أجرؤ أن أقول لها عليها.. أمل.

ماذا لو قلت لها عن هذا الجانب الآخر في حياتي! ماذا سيكون رد فعلها! لماذا تأخرت في إخبارها؟ لن أجلد نفسي بأسئلة ليس لها إجابة.. سألتها لنفسي آلاف المرات.

سلوىٰ تدرك الفارق الهائل بيننا ولكنها تحبني.. ولا تريد إحراجي، إقترحت أن نتزوج ببساطةٍ.. لا تريد فرحًا كبيرًا.. بل أبسط مما أتخيَّل.. فرح يضم أسرتي الصغيرة وأمها وبعض الأقارب المخلصين للعائلة.. دون تكاليف ترهقني أو ضجيج، يمكننا أن نسكن في جناح بالفيلا.. ويمكن لأخي وأمي أن يسكنا معنا، ستبدد أمي وحشة أمها.. وإن كان هذا الاقتراح يضايقني، أؤجر شقة صغيرة تكون قريبة من الفيلا حتىٰ لا تبتعد عن أمها كثيرًا.. سلوىٰ تتكلم كثيرًا.. تحاول أن تضع إجابات لكل الأسئلة المفترضة، صمتي ثقيلٌ.. يتردَّد سؤالٌ يكاد يصمُّ أذني، من أنا؟ أحاول الهرب:

-دعيني أفكر.

تحاصرني بطوق بديع من الحبِّ.. يعجبني.. وددت لو اختطفتني هذه المرأة بعيدًا.. أبتسم لها كأنني موافق علىٰ ما تريده، فتحاصرني أكثر، وتقول ما رأيك أن نتزوج الأسبوع

القادم؟ لم أستطع أن أتمالك نفسي فابتسمت.. ثم اتسعت الابتسامة بسرعة وانفجرت في الضحك بصورة تعجبت لها.. ولم أتوقف عن الضحك إلا حين شعرت أنني سأبكي.

في البيت وجدت أمل في ضيافة أمي.. غزت مشاعري فرحة مفاجئة لوجودها.. جلسنا قليلا نتكلم ثلاثتنا ثم استأذنت في الذهاب لغرفتي قليلا، لحقتني.. أول مرة تدخل أمل غرفتي، ابتسمت في تردد معتذرة عن الدخول بدون استئذان، لا أدري لماذا شعرت أن أمل تريدني أن أحضنها وأقبلها.. اقتربت بجرأة غير معهودة.. وقالت:

-لم تسألني عن شيئ في الإعداد للفرح.

لم أشعر بأي رغبة في لمسها ولو من باب المجاملة.. بل ابتعدت قليلا وقلت:

-البركة فيك.

لم تقترب أكثر ولكنها جلست علىٰ طرف السرير وقالت:

-كما تعرف الفرح بسيط وقد جهزت غرفة لنا في البيت.. وسوف يتركون لنا البيت لثلاث ليال لنكون وحدنا.. ويمكننا أن نتبادل الأماكن.. نقيم هنا.. أو هناك.. والدتك قالت أنه ليس لديها مانع في ذلك.

ابتسمت وتجرأت قليلا فجلست بجوارها، شعرت برعشة واضطراب يسري في جسدها، قلت:

-لماذا لم نفكر في هذا الاقتراح من قبل؟

التفتت إليّ بعينيها البنيتين وبابتسامة طيبة قالت:

-نسيت أننا سنسافر؟ علىٰ الأقل ستكون ضيافتنا خفيفة.

ثم سكتت وأحنت رأسها.. عندما شعرت بنداء عيناي الغارق في شفتيها وهي تتكلم، أشعر أن أمل تنتظر شيئًا ما مني، ربما أكون مخطئًا، ولكن هذا شعوري، وإحساسي الطاغي في هذه اللحظة، أمل أرض بكر طاهرة شفافة.. لا يليق أن أتجاوز معها، قلت لأقطع هذا الصمت:

-يفعل الله الخير لنا.

9

تمر الأيام.. يومًا بعد يوم.. لا أحد يعرف ما بي.. ولا حتىٰ أنا، كأنني أقود قطارًا يسير بسرعته القصوىٰ بدون مكابح إلىٰ هاوية.. لا أدري كنهها.

أقابل سلوىٰ في الصباح بشوق كبير.. أقضي معها أغلب أوقات العمل.. أعيش معها بكل كياني كأنه لا أحد في الدنيا

غيرها، وفي المساء أقابل أمل.. بنفس الشوق الطاغي.. تحدثني عن الفرح وماذا تعد له، أحبها.. ولم أحب امرأة قبلها، وما بين لقائي بأمل وسلوىٰ أسير بغير هدىٰ في صحراء شاسعة.. لا نهاية لها، السكون المريب يفرض سطوته عليها.

الاثنتان تشعران أن هناك مساحة مظلمة في حياتي.. صمتي وحزن يطل من عيني.. يبوحان لهما.. ولا أردُّ سوىٰ بابتسامة.. علىٰ كل علامات الاستفهام، كل واحدة تفسر علىٰ هواها، سلوىٰ تظن أنني أخشىٰ من الفارق الاجتماعي الهائل بيننا.. فتتحين كل فرصة لزيادة دخلي بمكافآت مجزية وبشكل رسمي يجعلني لا أعترض عليه، وأمل تتصور أن فراق أمي وأخي صعبٌ عليَّ.. فتؤكد أن باستقرار الأوضاع يمكننا أن نقوم باستقدامهما والعقد يسمح بذلك.. الوحيدة التي كانت ترقبني بكل كيانها.. وحبها و قلقها.. ولم تعد مقتنعة بشيءٍ من مبرراتي.. كانت أمي.

حاولت الهرب من الحصار الذي تفرضه نظرات أمي في كل مرة أدخل فيها البيت.. أتأخر كثيرًا حتىٰ تنام.. ثم أتسلل إلىٰ داخل البيت في هدوء، الليلة وجدتها في انتظاري.. ابتسمت.. وفتحت ذراعيها، وبتلقائية ألقيت بنفسي في بحر الحنان.. ضمتني بقوة كأنها تعصر حزني.. فسالت دموعي، ظلت تمسح علىٰ ظهري وتربت عليه، ثم أجلستني ومسحت دموعي بكفيها

وقبلتني وقالت متجاوزة سؤالي سر البكاء:

-إنتظرتك الليلة كثيرا؛ لنتعشىٰ سويا كما كنا نفعل في الماضي.. جهزت لك طعاما تشتهيه.

أنزلت حملي كله في حجر أمي.. رويت لها كامل حكايتي من يوم أن حضنت أمل في ذكرىٰ قصة حبنا السابعة قبل ثلاث أسابيع فقط.. وحتىٰ الليلة، استمعت أمي باهتمام متجاوبة مع كل كلمة قلتها.. حتىٰ انتهيت، ساد سكون عميق وظلت مطرقة إلىٰ الأرض صامتة ثم رفعت رأسها إلىٰ وقد جمدت ملامحها ، تنهدت وقالت:

-برغم أنني مقدرة لكل كلمة قلتها، وألتمس لك العذر كأم تتمنىٰ أن يرتاح ابنها من هذه الحيرة القاتلة، ولكن هذا التعاطف من أم لابنها شيئ وبنات الناس شيئ آخر.. يجب أن تحدد وبسرعة الآن ماذا تنوي أن تفعل، يجب أن تتخذ قرارًا حتىٰ ولو كان خاطئًا، سيكون أهون بكثير مما تعانيه الآن.

هززت رأسي في أسىٰ وحيرة:

-لا أدري.. هذه كنوز قارون قد فتحت لي بالحلال، إما أن أغرف منها ما أشاء وإما أن أتركها وأواصل صبر أيوب الذي لا ينتهي، بمرارته وحرمانه.

-إذن فقد حسمت أمرك لسلوى.

-لا لم أحسم بعد.

قالت بحدة:

-ومتىٰ ستحسم.. يوم الفرح؟ وكل فتاة منهما ترتدي فستان فرحها.. ثم تقف وتلعب لعبة حادي بادي.. ثم تستل سكينا لتذبح واحدة بدم بارد ثم تذهب بالأخرىٰ؟

ثم ارتفع صوتها أكثر:

-لم تحسم بعد؟ يبدو أنك لا تدري أنك في ورطةٍ كبيرةٍ.. ويجب عليك أن تنهي هذا الأمر الآن وبصورة عاجلة؟

فقلت بقوة غاضبة:

-ولكنني لا أستطيع أن أستغني عن واحدة منهما.. إنهما بالنسبة لي كالماء والهواء.. هل يمكن أن تستغني عن واحد منهما؟

قالت صارخة:

-تظن أن بنات الناس لعبة؟ لا تستطيع أن تستغني عن واحدة منهما؟ أنت تريد أن تأخذ كل شيئ.. كيف؟ قل لي؟ هل ستتزوج الاثنتين في ليلة واحدة يا شهريار العصر؟ لو كانت إحداهما أختك كنت رضيت لها ذلك؟

-أنا أتعذب يا أمي.. ولا أحد يشعر بي، نعم أمل مظلومة.. وأنا كذلك، هي انتظرت.. وأنا كذلك، بعد هذا الصبر المرير فتحت أمامي أبواب مغلقة علىٰ وسعها ووراءها مستقبل مشرق وواعد بالراحة والهناء وامرأة جميلة وبنت تعشقني وتتمنىٰ رضاي.. وأنا كذلك أحببتها، ثم تطلبون مني أن أترك كل هذا لأبدأ مشوارًا جديدًا بالسفر لأشق الصخر بأظافري! تعبت يا أمي.. شبابي يحترق.. وعمري يضيع.. وأنا لا أفعل شيئا.

قالت أمي وهي تمسح دمعة فرت من عينيها:

-عليك أن تختار وتنهي هذا الموقف الآن.

-لا أستطيع يا أمي كذلك أن أجرح أمل هذا الجرح البليغ بعد سنوات الصبر.. وحبها الذي جعلها تنتظر بلا كلل ولا ملل رجلاً عاجزًا لا يملك فقط إلا أن يحبها.. كلما تصورت أنني سأتركها يهتز كياني بالحزن.. وددت لو متُّ وارتحت من هذه الحيرة.

لم تتعاطف أمي مع كلماتي ولكنها واصلت صراخها في وجهي بقسوة :

-أنت لا تحب سوىٰ نفسك.. لقد خذلتني.. خذلتني بعد هذا العمر.. كل التضحيات التي بذلتها في حياتك، وقوفك بجوار أبيك، وتعبك وسهرك دون أن تفكر في نفسك، كل الصبر الذي

تحملته لتسعد من حولك تأتي اليوم لتمحوه في لحظة.

-أمحوه في لحظة؟ لمجرد أنني أبحث عن راحتىٰ بعد هذا العناء.

-ليس هناك رجل بمعنىٰ كلمة رجل يبحث عن سعادته بذبح فتاة مثل أمل.

عندما ذكرت كلمة أمل لم أستطع أن أتكلم فأطرقت رأسي للأرض فأكملت حديثها:

-واضح أنك قد حددت اختيارك.. ولكنك ضعيف لا تستطيع مواجهته.. وتعرف أنك مخطئ.. ولكنه المال أعمىٰ عينيك و بصيرتك، سأوفر عليك هذا الأمر، سأنهي هذا الموقف مع أمل وربنا معها.. لقد صبرت وتحملت من أجل حبها لك وثقتها بأنها ستتزوج رجلًا.

ثم وقفت ونظرت إلي بأسىٰ وتركتني منصرفة.. ثم التفتت لي وقالت:

-يمكنك أن تعقد مقارنة بين أموال قارون وخزائنه التي فتحت لك لتأخذ منها ما تشاء بالحلال كما تقول.. أو صبر أيوب الطويل علىٰ العذاب والضنىٰ الذي ابتلاه الله به.. ولكن لا يجب أن تنسىٰ أبدا العاقبة التي صار إليها كل منهما.. قارون.. وأيوب.

10

برغم كلمات أمي القاسية التي واجهتني بها دون أدنىٰ تعاطف معي إلا أنني شعرت أنها أنزلت حملا كبيرًا عن كاهلي حين تطوعت بإنهاء كل ما كان بيني وبين أمل.. أعرف أنها لن تفعل ذلك من أجلي ولكنه من أجلها.. كلمات أمي أوضحت لي الطريق الذي يجب أن أسير فيه، لن أحاول التفكير كثيرا في أمل، سأتجاوز حزني علىٰ فراقها علىٰ أن أحسم أمري كما قالت أمي، وأخرج من حالة التردد التي أعيشها.

اليوم سأقابل سلوىٰ بوجهٍ جديدٍ.. سأبدِّد الحيرة التي أصابتها في الأيام الماضية سأتكلم معها في إجراءات الزواج.. وتفاصيله، ليس هناك مانع أن نقيم في الفيلا.. سأحاول إقناع أمي وأخي بالإقامة معنا، أعرف أن أمي صعبة المراس، ولكنها قد تلين أمام طيبة أمها.. ما أشد شوقي إلىٰ سلوىٰ.

حين جلست إلىٰ مكتبي شعرت لأول مرَّةٍ بالامتلاء.. دخلت في الكرسي المخملي عن آخره.. أسندت رأسي للخلف، أغمضت عينيَّ، تنفست بعمق، أشعر بالراحة تعم كياني لأول مرة.

تأخرت سلوىٰ اليوم.. النهار يكاد ينتصف.. وقبل أن أتساءل لماذا تأخرت، أتت الحبيبة وزهور الربيع مجتمعة كلها علىٰ

وجهها، ثم نثرتها علىٰ وجهي بابتسامة وقبلتين علىٰ خدي..
تحمل في يدها كيسًا كبيرًا قدمته لي وقالت:

-قل لي ما رأيك في هديتي الصباحية.

-هديتك الصباحية؟

رفعت يدها بالكيس لأعلىٰ وقالت:

-بدلة الفرح.. أرجو أن تقبلها مني وبدون نقاش.

ابتسمت لها.. وقلت:

-هدية مقبولة.

فتحتها.. بدلة فاخرة جدًّا.. أطارت عقلي بلونها الأسود اللامع.. فقبلتها في جبينها وقلت:

-ليتني أستطيع أن أهديك بهدية مماثلة.

قالت:

-أنت أروع هدية في حياتي.

السعادة تدق أخيرا علىٰ باب حياتي.. وإحساس كبير يملؤني بأنه قد آن الأوان لأتلقىٰ الجائزة الكبرىٰ بعد ماراثون طويل في الشقاء.. عدوت فيه لمسافة طويلة جدًّا، أصابني فيه الإرهاق والحزن والملل حتىٰ كاد اليأس أن يأكل قلبي، الجائزة جاءت في وقتها بدقة.. لعل خصامي مع أمل كان إشارة لأن فراقنا هو الحل

الأمثل، أشعر الآن أنني في مكاني الطبيعي في الحياة، أنظر لسلوىٰ وهي تعد لي الشاي.. تنظر إلي بحبٍّ و حنان.. تتعامل معي كأنني مليكها.. وسيدها.. كأنني؟ لا أنا في الحقيقة كذلك.. ولن أخيب ظنها فيّ أبدًا، سنرتشف سويًا من نبع السَّعادة.. ولم لا وكل شيئ يدين لنا، الأموال بين أيدينا لا حصر لها، ما أريده سيأتيني وقتما شئت.. أليست هذه جائزة الحياة الكبرىٰ.

اقتربت من سلوىٰ.. غمرني عطرها، فتفتحت زهور أوردتي.. وانتشىٰ جسدي، أمسكت يدها.. قبلتها، ابتسمت سعيدة.. ضممتها برفق، عانقتني، رحنا في واحة رحيبة من الحب والهوي، كأننا نعسنا.. في حلم بديع.. لا أريد للزمان أن يمرَّ.. أريد أن يتوقف العمر؛ ليتيقن أنه يعيش حقيقة يضمها بيديه.. قبل أن يواصل رحلته، لا أريد أن أستيقظ أبدا.. أبدا.. أبدا، ولكنني استيقظت.. حين انفتح باب المكتب بشكل مفاجئ لتدخل علينا أمل.

دخلت أمل بشكل عفوي مبتسمة تحمل في يدها كيسًا كبيرًا وما إن وقع نظرها عليّ وسلوىٰ في حضني حتىٰ تحوَّلت الابتسامة إلىٰ صدمةٍ مروعة.. وتغير لون وجهها إلىٰ بياض شاحب كالأموات.

علىٰ وجه سلوىٰ اندهاش كبيرٌ من اقتحام امرأة لا تعرفها للمكتب بهذه الجرأة.. وتساؤلات لا تعرف لها إجابة.

علىٰ وجهي مشهد لانهيار أحلام طاولت السحاب.. وضباب كثيف يملأ الحياة من حولنا.

ذهولٌ وصمتٌ.. وترقبٌ يخيم علىٰ قاعة المحكمة التي عقدت فجأة وبدون سابق إنذار للحكم الأخير.. المتهم في قفص الاتهام ينتفض، ويرتعش كيانه من هول المفاجأة.. ودَّ لو مات الآن، لم يعد هناك أي فرصة للاستئناف، أو تأجيل للحكم.. الآن سيصدر الحكم.

ثم.. اقتربت سلوىٰ من أمل باستفاهم منطقي:

-نعم.. من أنت؟ وماذا تريدين؟

نظرت أمل إليّ.. أغمضت عيني وأطرقت إلىٰ الأرض، فاقتربت أمل مني، وعلىٰ وجهها فجيعة باكية:

-ألا تجيبها؟!

التفتت سلوىٰ إليّ مباشرة وقالت:

-هل تعرفها؟ أجبني.. من هذه المرأة؟

أصابني الخرس فجأة لا أعرف بماذا أجيب.. فقطعت أمل ذهول سلوىٰ وقالت:

-سأجيبك.. أنا أمل خطيبة الأستاذ منذ سبع سنوات.. وسوف نتزوج الأسبوع القادم.

ثم رفعت يدها بالكيس وقالت:

-وهذه بدلة الفرح اشتريتها له منذ قليل ولم أطق صبرا حتىٰ أريها له.

نظرت سلوىٰ إليّ في ذهول وقالت صارخة في وجهي:

-هذا الكلام صحيح؟! تكلم.. تكلم أرجوك.

سمعت صوتي بالكاد يأتي من بئر سحيق حين قلت لها:

-نعم.

فقالت أمل بصوت قوي تسأل سلوىٰ:

-ومن أنت؟

ضحكت سلوىٰ بهيستريا وقالت:

-أنا كذلك خطيبته.. وسوف نتزوج الأسبوع القادم.

ثم رفعت كيس البدلة لأعلىٰ وقالت:

-وهذه بدلة الفرح اشتريتها له منذ قليل.. وجئت سعيدة فرحة لأريها له.

نظرت أمل لبدلة سلوىٰ بانكسار ذليل.. ثم نظرت للبدلة التي اشترتها.. ثم رفعت عينيها إليّ.. ارتعشت شفتاها كأنها تريد أن تقول شيئا، ثم التفتت إلىٰ سلوىٰ.. والدموع تتسابق علىٰ وجنتيها، ألقت البدلة باستهانة علىٰ الأرض، ثم انصرفت.

ظلت سلوىٰ تتبع خروجها الجنائزي من المكتب، ثم واجهتني سلوىٰ بكل جبروت وقوة، ثم أشارت إلىٰ باب المكتب وصرخت في وجهي:

-أخرج من مكتبي يا حقير.. لا أريد أن أرىٰ وجهك مرة أخرىٰ في حياتي.

قلت لها برجاء:

-أرجوك اسمعيني.. وسوف أخرج ولن أعود.. فقط اسمعيني.

-إياك أن تفتح فمك و تتكلم.. أنت كذاب مخادع.. اخرج الآن.. اخرج.. لا أستطيع حتىٰ أن أنظر إليك.

11

عدت للسير في الفراغ.. لا أشعر بشيء مطلقا.. شيئ ما في كياني معطل، يجعلني لا أسمع ولا أرىٰ، أسير في الشوارع كأنني آلة يقودها أحد ما، أغذ السير بقوة إلىٰ أين؟ لا أدري.

استقبلتني أمي بعيون ملهوفة حزينة، تلقفتني في حضنها.. لا تنثال دموعي إلا في حضنك يا أمي، لا أشعر بكياني إلا في حنانك، بكت لبكائي، ربتت علىٰ ظهري كأنها تطبِّب جراحي.. ولكن هيهات.. انهارت مقاومتي تماما فسقطتُ من بين يدي أمي علىٰ الأرض.. فصرخت.

فتحت عيني قليلا بعد ليالٍ قضيتها غائبًا عن الوعي.. فوجدت أمي مازالت تغزل صوفها الجميل بلونه النادر.. مسكينة أمي تعبت كثيرًا في حياتها، كنت أملها الكبير ولكنني كما قالت خذلتها، رفعت الصوف لأعلىٰ لتراه جيدًا فوقعت عينيها عليّ فقامت مبتهجة سعيدة لاستيقاظي.. فابتسمت لها.

مرض أبي الطويل والمسئولية التي وضعتها الأقدار علىٰ عاتق أمي جعل منها امرأة صلبة.. لا تحبُّ الضعف.. ولا تحب أن تراني ضعيفا.. حثتني علىٰ أن أقوم من فراشي ، ساندتني.. وقالت بقوة:

-الحياة لا تتوقف.. الذي يتوقف هم الأموات فقط، مازلت حيًا وطالما أنك تتنفس فيجب عليك ألا تستسلم أبدا.

وقفت إرضاءً لها.. وعندما وقفت سألتها عن أمل.. نظرت إلىّ طويلا وقالت:

-الآن تسأل عن أمل؟

-نعم يا أمي.

-رحلت.

-رحلت؟

-نعم.. اختفت تمامًا.. قابلتها مرَّة واحدة.. كانت طريحة

الفراش، تكلمت معها لم ترد سوىٰ بالدموع، فلقت كبدي بحزنها، لم تتجاوب معي أبدا فتركتها ثم عدت في اليوم التالي فلم أجدها ، سألت عنها، رفض أهلها بإصرار أن يقولوا عنها شيئا وقالوا هذه حياتها، إن أرادت أن تعود فهذا اختيارها.. غيرت رقم هاتفها، وانقطعت أخبارها عني، وتركت لك خطابا قبل أن تختفي.

ناولتني مظروفا مغلقا، فأخذته بلهفة، وفتحته بسرعة لأجد فيها عقد العمل الذي دفعت فيه كل ما ادخرناه سويا.. هممت بتمزيقه فمنعتني أمي وجذبته مني، وقالت بغضب:

-ألا تفكر مرة واحدة قبل اتخاذ أي قرار؟

فقلت بضيق:

-وماذا سأفعل به؟

قالت بإصرار:

-تحزم أمرك وتسافر.

-أسافر.. إلىٰ أين؟ وبعد هذا العمر؟

-يعز عليّ أن تفارقني.. ولكنني أريدك أن تسافر لعلك.. لعلك تجدها هناك.

نظرت إليها بلهفة وقلت:

-أجدها؟! من؟!

-نفسك.

الفهرس

